طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

الدكتور بكري شيخ أمين

البلاغة العربية
في ثوبها الجديد

الجزء الأول

علم المعاني

دار العلم للملايين

البلاغة العربية

في ثوبها الجديد

علم المعاني

الدكتور بكري شيخ أمين

البلاغة العربية
في ثوبها الجديد

الجزء الأول

علم المعاني

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٩

الطبعة السادسة

تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٩

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشرف الصّلاة وأتمّ السّلام على سيّدنا محمد أفصح العرب أجمعين.

وبعد: فإن أشرف العلوم وأكرمها هي التي تخدم كتاب الله الكريم، وسنّة رسوله العظيم، أو هي التي تدور في فَلَكَيْهما.

وعلم البلاغة واحد من تلك العلوم الشريفة الكريمة، وُلِد في أحضان كتب «إعجاز القرآن» وتربَّى على أيدي علماء أجلّاء، عكفوا على إحاطة كتاب الله بقلوبهم وعيونهم وأرواحهم، وبرعوا في فهم الآيات والنّصوص الأدبيّة الرائعة، ودان لهم التّعبير الفنّي البديع، والتّأليف العلميّ الرّفيع.

ولئن عَبَر في تاريخ هذا العلم رجال يبست نضارة العبارة على أقلامهم، وغابت رشاقة الكلمة من تآليفهم، وغلبت على كتاباتهم الروح المنطقيّة، والأساليب السقيمة، والأمثلة المحنّطة، والقواعد المتحجّرة، والتقسيمات والتفريعات. حتى ليَضيع القارىء في متاهاتها. إنّ ذلك كلّه لم يَقْضِ على علم البلاغة، ولم يقذف به إلى عالم الموتى أو ركام المهملات.

ويخيَّل إلينا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بارك هذا العلم كما بارك كلَّ من اشتغل بـه وأحبَّـه، وأخلص لـه. ويـدلّنـا علـى صحـة ذلـك رفـوف المكتبات العربيّة والإسلاميّة التي ما تزال مفعمة بمؤلفات البلاغة، سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة. في حين أنّ كثيراً من المؤلّفات في علوم أخرى طوته يد البِلَى، وعبثت به صروف الأيام، فلم تُبْقِ له أثراً.

*

وتختلف نظرة العلماء المعاصرين إلى البلاغة العربيّة باختلاف ثقافاتهم واتّجاهاتهم وميولهم الفكريّة والاجتماعيّة.

فريق يسعى إلى إلغاء دَوْر البلاغة العربيّة إلغاءً تامًّا، وإحلال علم النّقد، أو علم الأسلوب محلّها. لأنّه يزعم أن القدماء وقفوا في بلاغتهم عند حدود الشّاهد المجتَزَأ المبتور، فأظهروا ما فيه من تشبيه أو استعارة أو سوى ذلك، ولم يتجاوزوا تلك الحدود. وهم ـ وأعني هذا الفريق ـ يريدون أن يتخطّوا الحدود ويكسروا القيود، لينطلقوا إلى آفاق الصورة الفنّية الكاملة، ذات الأُطُر والأبعاد والظّلال والأنداء. والبلاغة العربية عاجزة بنفسها وبرجالها المعاصرين والغابرين عن بلوغ هذا الهدف الرّفيع.

هذا الفريق يدسّ السّمّ في الدّسم، يظهر شيئاً، ويبطن أشياء؛ يتظاهر بالغَيْرة على الصّورة الفنيّة، ويبطن شعوبيّة سوداء، أوّلها عداوة لكتاب الله، ولكلّ علم يخدم كتاب الله، أو يدور في فلكه. والبلاغة من خَدَمِ القرآن وحُرّاسه، تسعى في المقام الأوّل إلى بيان إعجازه، ومن ثَمَّ تتّجه إلى النصوص الأدبيّة التي أبدعها النّاس.

ولئن اهتمّت البلاغة العربية بالشّاهد الفرد فأظهرت وجوه البيان أو البديع فيه. إنّها لم تهمل النّظرة الكليّة الجامعة، والتعبير الوجدانّي، والأثر النّفسيّ، والظّلال والأفياء والأنداء. وكتب عبد القاهر خير دليل

عما نقول.

أما الفريق الثاني من العلماء فينظر إلى هذا العلم نظرة محبّة وتقدير، ويشيد بما جاء به الآباء والأجداد من آراء واجتهادات. ويطالب بوضعها بين أيدي الدّارسين والمتعلّمين، لأنها جزء من حضارة هذه الأمّة، وعنوان مشرّف على إبداعها وسموّ تفكيرها.

ومع هذا، فإنه يطالب بالتّطوير والتّحديث، ويلحّ على اقتلاع ما علق بالبلاغة من أوشاب المنطق والفلسفة، وآثار التحجّر والجمود، وربطها بمعطيات العلوم الأخرى، ومقارنتها ببلاغة الأمم الحيّة، ثم إعادة صوغها ببيان مشرق ناصع عربيّ مبين.

* *

ولقد شرّفني الله ـ سبحانه وتعالى ـ بخدمة هذا العلم وتدريسه في أكثر من جامعة عربية سنين عدداً. ويسّر لي قراءة كثير مما دبّجه يراع الآباء والأجداد، والأبناء والأحفاد، في هذا العلم والمجال.

وراودتني النّفس على كتابة سطر فيه، أجمعه مع ما كتبه السَّلَف والخَلَف. وتردّدت في ذلك زمناً، كنت أقدّم رجلاً وأؤخّر أخرى، ثم ألهمني الله سبيل الإقدام.

كانت خطتي المتواضعة في هذا الكتاب تقوم على ثلاثة مبادىء أساسيّة:

١ ـ المحافظة على جوهر البلاغة الأصيلة.

٢ ـ تحديث هذا العلم قدْر الطاقة.

٣ ـ عرض النتائج ببيان عربي فصيح.

* * *

وبعد، فلقد حاولت مخلصاً أن أخدم بهذا العمل كتاب الله الكريم

وسنّة رسوله العظيم، ثم لغة أمتي العربيّة المسلمة وأدبها وتراثها. فإذا كنت قد أصبت وبلغت الهدف، أو بعضه، فذلك فضل من الله وحده وتوفيق. وإن كنت قد أخطأت، أو لم أبلغ شيئاً، فالذّنب ذنبي، والتّقصير تقصيري، وأستغفر الله عليه.

وفي الختام: أبتهل ضارعاً راجياً إلى الله سبحانه وتعالى أن يقبل من عبده الصغير الضّعيف صِدْق النيّة، وإخلاص العمل، وينفع بهذا الجهد المتواضع، ويجزي صاحبه خير الجزاء، ويجعل ثوابه في صحيفة والديه وفي صحيفته وصحيفة ذريته من بعده إنه سميع قريب مجيب.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

جدة الأول من رجب ١٤٠٥ هـ
٢٢ آذار (مارس) ١٩٨٥ م

بكري شيخ أمين

البلاغة علم وذوق

هذا البيان السّاحر الذي نتلوه قرآناً، وذاك القول الرّائع الذي نعجب له ونطرب، وتلك الوردة الأنيقة التي تلفّنا بهالة من العطر والشَّذا. ما الذي جعلها تمتاز عن سواها، أليس فيها شيء فضَّلها على غيرها، بل أليس في تركيبنا النّفسيّ والعقلي والجسديّ ما شدّنا إلى الإعجاب بها، والانجذاب إليها؟

أَوَلَسْنا في مرةٍ نرى أنفسنا متحمّسين لقصيدة شعريّة معيّنة، أو قطعة موسيقيّة، أو أنشودة غنائية، أو لون من الألوان، فنفضّلها على سواها، ثمّ نرى في الوقت ذاته إنساناً آخر، لم يذهب مذهبَنا، فلم يتحمّس لما تحمّسْنا، ولم يطرب لما طربنا، ولم يعجب بما أعجبنا؛ وإنما حماسته، وطربه، وإعجابه سارت في غير طريق، وتوجّهت إلى غير سبيل؟

ذلك سرّ هذا الكون، وعبقرية هذا الخَلْق. اختلاف في المشارب والطبائع والنفوس والأهواء، وتباين في الأذواق والمواهب والمذاهب، لتستمرّ حركة الحياة، ولتعمر بناية الكون، ولتأخذ الحياة مجراها؛ ويكون للعقول والقلوب أثرها وقيمتها ورجحانها.

وليس من الحق أو العدل أن نحكم على ما فضلنا أنه الخير والصواب أبداً، وما فضّله غيرنا أنه الشر والخطأ دائماً. إذ لو كان لنا هذا لوقعنا في التناقض، وغرقنا في التيه. فميولنا قد تختلف بين عُمُر وعُمُر، وآونة وأخرى، ومحيط ومحيط، وثقافة وثقافة، وهكذا.

وكيف نقول عن ميولنا التي اختلفت بين صبانا وشبابنا؟ وماذا نحكم على آرائنا التي تبدّلت من زمن إلى زمن؟ وبمَ نحتجّ على أذواقنا التي تباينت من سنّ إلى سنّ؟ ثم ألايمكن الآخرين أن يحكموا لأنفسهم بمثل ما حكمنا لأنفسنا، وأن يدّعوا أنّ حكمهم هو الأقوم والأرجح والأصوب؟

إذن! ما السبيل إلى تبيُّن الحق، وتمييز الرشاد، والحكم بالعدل والقسطاس المستقيم؟

يقول بعض العلماء: إنّا في مثل هذه الأحوال نحتكم إلى الذّوق، وبه نهتدي إلى سواء السبيل؛ وبالذّوق نتمكّن من تمييز الحق وغير الحق، والصواب وغير الصواب، والملائم وغير الملائم، على أن يكون هذا الذوق المرجّح سليماً

نحن مع هذا الشرط، ونؤمن أن الذّوق السليم هو الحَكَم الفصل بين المتناقضات واختلاف الأهواء والآراء. ولكن كيف نتعرف الذوق السليم، ونميزه عن الذوق غير السليم؟ بل متى نقول: هذا ذوق صحيح سليم، وذاك ذوق غير سليم؟ أنقول ذلك اعتماداً على ذوقنا أم على ذوق غيرنا؟ ومن الذي يحكم أنّ ذوقنا أو ذوق غيرنا هو السليم؟ قد يقال: يحكم به صاحب الذوق ويميزه. وحينئذ نعود إلى السؤال من جديد: من أين لنا أن نعرف صاحب الذوق؟ أنعرفه بذوقنا أم بذوق سوانا؟ وهكذا ندور في الحلقة المفرغَة.

وبعد، فإنا مقدمون على دراسة «علم» فيه للذوق أثر كبير، ولكن فيه للعلم والمعرفة والمقاييس الموضوعية الأثر الأكبر، وبدون هذه المقوّمات العلمية والموضوعية لا نستطيع الوصول إلى حكم عادل يرضينا ويرضي غيرنا من العالمين.

هذا العلم الذي نسعى إلى تعرفه هو «البلاغة» أو فن القول البديع.

والبلاغة، أو التعبير الفني الجميل، ليست قاصرة على الأمة العربية دون سواها من الأمم، وإنما هي قاسِم مشترَك بين سائر الأمم وشعوب الدنيا. كلٌّ منها له بلاغته، وله تعبيره الفنّي الجميل، وقد تختلف مقاييس هذه البلاغة بين أمة وأخرى، وعصر وعصر، ولكن تبقى عناصر مشتركة بينها جميعاً، منها الجمال، والذوق، والفن، والصدق، والأناقة، وصحة التعبير.

* * *

لكنّا سنقصر دراستنا على «البلاغة العربية» وحدها، دون أن ننسى حق الرجوع بين الفَيْنة والفَيْنة ـ إذا ما ادلَهَمَّ الرأي ـ إلى ما يقوله الآخرون في تلك القضية استئناساً واستلهاماً.

في تعريف البلاغة

البـلاغـة العـربيـة تتمثّـل أوّلاً وأخيـراً فـي النّصـوص المكتـوبـة، أو الملفوظة وحدها

ونختلـف رأيـاً ومـا رُوِيَ علـى لسـان ابـن المقفـع حيـن سُئِـل عـن البلاغة، فأجاب: «البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، وربّما كانت رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحي فيها، والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة»[١]

كذلك نختلف وما جاء به ابن المعتز من أن «البلاغة هي البلوغ إلى المعنى، ولما يَطُلْ سَفَرُ الكلام»[٢]

ونخالف الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عرّف البلاغة بأنّها: «ما قَرُب طرفاه، وبَعُد منتهاه»[٣]

السكوت بلاغة، والاستماع بلاغة، والإيجاز بلاغة. إنا إذا أخذنا بهذه الأحكام جاز لنا أن نقول قياساً: المشيُ بلاغة، والأكلُ بلاغة، والشرب بلاغة، والضحك بلاغة، والصفير بلاغة، في بعض الحالات.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٥

(٢) كتاب البديع، نشر كراتشكوفسكي ص ٤٧.

(٣) دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ص ١٩

أبداً ليس هذا بصحيح، إنا نستطيع أن ندعو تلك التصرّفات «تكيُّفاً» مع الموقف، أو «تلاؤماً» مع الظرف، ونستطيع أن نطلق عليها أيَّ اسم، أو أيّ صفة، ولكن لا يمكننا أن نسميها «بلاغة».

والإيجاز كذلك. إنه ما دام ينسرب في الكلام المحكيّ، أو المكتوب، فقد يكون من البلاغة حيناً، ومن غير البلاغة حيناً آخر وقد يكون الموجِزُ مصيباً في موقف، وغير مصيب في موقف آخر

انظر إلى قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام إذ سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ؟ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي، وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾(١)

أوليس الله ـ جل جلاله ـ هو الذي خلق موسى، وخلق عصاه، ويعرف السبب الذي من أجله حمل موسى عصاه؟ إذن فلماذا كان السؤال أولاً، ولماذا كانت هذه الإجابة المسهبة المفصّلة؟ ألم يكن أولى بالسائل ألاّ يسأل، وبالمجيب أن يختصر، ولاسيما أنه في حضرة ملك الملوك، ومن يعرف الظاهر والباطن، والسرّ وأخفى؟ ألم يكن بعيداً عن البلاغة ـ في رأي ابن المقفع، وابن المعتز، والخليل، ومَن عرّف البلاغة بالإيجاز؟

مخطئون هؤلاء القوم حين قَصَروا البلاغة على الإيجاز، دون قيد أو شرط، لأنهم نَسَوْا أن الإيجاز عيب حين يكون الحبيبُ مع الحبيب، وحين تحلو النجوى، ويلذ الحديث، وتطيب المناغاة، وهل كان موسى ـ عليه السلام ـ إلاّ محباً وحبيباً في آن واحد؟ وهل أحبّ إليه من هذا الموقف الرائع، يسأله حبيبه الذي فضّله بالرسالة، واصطفاه واجتباه؟ ويجيبه موسى يفصّل له، ويشرح. وموسى إنْ لم يسهبْ في مِثْل هذا الموقف، فأين يحسن الإسهاب، ويُستحَبّ الشرح والتفصيل؟

---

(١) سورة طه، الآيتان ١٧ ـ ١٨

عبثاً إذاً أن نقول: السكوت بلاغة، والاستماع بلاغة، والإيجاز بلاغة، وأمثال هذه الأقوال، لأن للظروف أحكامَها، وللمواقف متطلباتِها. والبلاغة الحق، إضافةً إلى كونها الكلام المكتوب، أو المسموع، هي التي تقدّر الظروف، والمواقف، وتعطي كل ذي حق حقه، سواء أكانت شعراً أم نثراً، مقالاً أم قصة، مسرحية أم حكاية، مديحاً أم هجاء، غزلاً أم استعطافاً.

* * *

البلاغة بين اللفظ والمعنى

وما دامت البلاغة مقصورة على الحديث المكتوب أو المسموع، فأين تكون من هذا الحديث، أتقع في ألفاظه أم في معانيه؟

لقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في موقعها، وانقسموا شيعاً وأحزاباً، فمنهم من انحاز إلى جانب اللفظ، ومنه من انحاز إلى جانب المعنى، ومنهم من رأى بينهما صلة لا يمكن فصلها.

* * *

مدرسة اللفظ

ويبدو أن مطلع العصر العباسي، وما رافقه من أفكار واتجاهات أول من مال إلى جانب ترجيح جانب الألفاظ، والعناية بالشكل والمظهر ومدرسة مُسْلِم بن الوليد[1] خير شاهد.

ثم جاء الجاحظ[2]، وقال كلمته المشهورة: «المعاني مطروحة في

---

(١) انظر ترجمة مسلم في كتاب الأغاني، والملحقة بديوانه (طبع دار المعارف) ص ٣٦٤؛ والأعلام ٨/ ١٢١

(٢) الحيوان ٣/ ١٣١

الطريق، يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقرويّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك»[١]

وتتابع العلماء بعد الجاحظ، يكررون قوله، ويؤكدون رأيه، ويرجّحون جانب اللفظ، ويعدّونه العنصر الأهم في التعبير الجميل. قال أبو هلال العسكري[٢] في كتاب «الصناعتين»: «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جَودة اللفظ وصفائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلوّ من أوَدِ النظم والتأليف، وليس يُطلب من المعنى إلاّ أن يكون صواباً»[٣]

وسار ابن خلدون في هذا الاتجاه، فقد كان يرى أن الأصل في صناعة النظم والنثر إنما هو للفظ، والمعاني تابعة للفظ «لأن المعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوق كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة»[٤] ويورد تشبيهاً على ذلك ماء البحر، فقد يغترف بآنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، بينما الماء واحد في نفسه، وإنما الاختلاف قائم بين الأواني[٥]

وكان أحمد حسن الزيات[٦] من المعاصرين ميّالاً إلى ترجيح جانب اللفظ. ومن أقواله: «والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي

---

(١) الحيوان ٣/ ١٣١

(٢) اسمه الحسن بن عبد الله، وانظر ترجمته في معجم الأدباء ٨/ ٢٥٨؛ وبغية الوعاة ص ٢٢١؛ والأعلام ٢/ ٢١١

(٣) الصناعتين ص ٥٨

(٤) المقدمة ص ١٣٠٢

(٥) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٦٢٧

(٦) من رواد الأدب الحديث، مصري، أصدر مجلة الرسالة، وكتب عدداً من المؤلفات. توفي سنة ١٩٦٨م.

أناقة الديباجة، ووثاقة السرد، ونصاعة الإيجاز، وبراعة الصنعة؛ فإذا كان مع كل ذلك المعنى البِكرُ، والشعور الصادق، كان الإعجاز. وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ، وبراعة التركيب، من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتّسم بالجمال، ويظفر بالخلود، إذا جاد سبكه، وحسن معرضه[١]

وفي عالم الأدب الغربي مَنْ يتجه مثل هذا الاتجاه، فقد روي عن لابروبير[٢] Labruyère أن «هوميروس[٣]، وأفلاطون[٤]، وهوارس[٥] لم يَبِنْ شَأْوُهم إلاّ بعباراتهم وصُوَرِهم[٦]»، كما روي عن شاتوبريان[٧] Chateaubriand قوله: «لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب»[٨]

* * *

ويخيّل إلينا أن الإيمان بهذا الاتجاه أدّى بفريق من الأدباء العرب في القرن الخامس الهجري، وفيما تلاه من قرون إلى أن ينزعوا إلى جانب تفضيل الألفاظ، والتأنق بالأساليب على حساب المعاني والجوهر؛ فغدا أدب هذه العصور ألفاظاً مرصوفة، وقوالب جامدة، وأجساماً بدون أرواح، فانهار الأدب، وطغت عليه عوامل الانحطاط، وأسفَّ غاية الإسفاف.

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ٢٥

(٢) كاتب فرنسي أخلاقي ولد في باريس ١٦٤٥م، وتوفي في فرساي سنة ١٦٩٦م.

(٣) أعظم شعراء اليونان، نظم الإلياذة والأوديسّة، عاش في القرن الثامن قبل الميلاد.

(٤) فيلسوف يوناني، تتلمذ لسقراط، وفاته (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م)

(٥) من أعظم كتاب اللاتين. يعدّ هو وفرجيل أعظم أدباء عصرهما. عاش في القرن الأول قبل الميلاد.

(٦) دفاع عن البلاغة ص ٦٤

(٧) شاتوبريان: أمير النثر الفرنسي غير مدافع. ولد سنة ١٧٦٨م، وتوفي سنة ١٨٠٤م.

(٨) دفاع عن البلاغة ص ٦٤

تأمل قول السيد عبد الله الأدكاوي[١] يرثي الشيخ العشماوي[٢]:

يا أمةَ الإسلامِ يا أهلَ الهدى ... علمـاءَهُ مـن مُبْتَـدٍ أو منتهـي
قد مـاتَ عشمـاويُّكـم تبًّـا لمـن ... بالمجدِ عَن ثوبِ التأسفِ يلتهي
مَنْ بَعْدَه للترمذيِّ[٣] ومُسْلِمٍ[٤] ... أو للبخـاريِّ[٥] الصِّحـاحِ الأوجُـهِ
فالشافعي[٦] نادَى ليومِ مُصابِهِ ... أوّاهُ ضـاعَ مَـذاهِبـي وتَفَقُّهـي[٧]

هل تحسّ في هذه الأبيات بغير كلمات رَصَفها الشاعر، ومَلأَ بها فراغَ الأبيات؟ بل تأمل المعنى، ولماذا يكون الاشتغال بالمجد مانعاً لصاحبه من لبس ثوب التأسف أو جبّته؟ هل يعني ذلك أنه يجب على تلاميذ الراحل ألاّ يشتغلوا عن تشييع جنازته والعزاء فيه بالذهاب إلى حلقات الدرس، أو ماذا يعني؟ وتأمل استعمال قوله «الأوجه» في البيت الثالث، وعطف «تفقهي» وهو مفرد على «مذاهبي» وهو جمع؟ أترضى الفصاحة بهذا اللون من التعبير، بل أيرضى طالب متأدب في عصرنا أن تنسب إليه مثل هذه الأبيات؟

---

(١) متأدّب مصري ينسب إلى قرية «أدكو» المصرية. له عدد من المؤلفات المخطوطة. توفي سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م. الأعلام ٤/ ٢٣٤

(٢) لعل المقصد به: عبد اللطيف بن شرف الدين العشماوي: فقيه مالكي، نظم الفقه والعروض. توفي بمصر سنة ١٠٨٦هـ/ سنة ١٦٧٥م. الأعلام ٤/ ١٨٢ أما إذا كان المقصود غيره فلم نعثر له على ترجمة.

(٣) محمد بن عيسى الترمذي: من أئمة الحديث، وصاحب الجامع الكبير، والشمائل النبوية، والتاريخ، والعلل. ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. الأعلام ٧/ ٢١٣

(٤) مسلم بن الحجاج، من أئمة الحديث، صاحب «صحيح مسلم» وكتب أخرى. ويعدّ صحيحه مع صحيح البخاري أصحّ شيء بعد القرآن. ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م. الأعلام ٨/ ١١٧

(٥) محمد بن إسماعيل، أكبر عالم بالحديث، صاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري وهو أوثق كتاب في الحديث. ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م. الأعلام ٦/ ٢٥٨

(٦) محمد بن إدريس المعروف بالإمام الشافعي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م. الأعلام ٦/ ٢٤٩

(٧) عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي ١/ ١٩٦

وتأمّل قول ابن سناء الملك[1] في ممدوحه:

كـأنّـه «كـانَ» قـد جـاءتْ بـلا خَبَـرِ مُكَمَّـلٌ، وسِـواهُ نـاقِـصٌ أبـداً
صَـلاتُـهُ حيـن طـالَ الغـزوُ بـالقِصَـرِ غَزا، وطالتْ مغازِيه، وقـد غُزِيَتْ

الشاعر يحشو في جو المديح ألفاظ العلوم، ولا يرى أمامه إلاّ «كان» حين تنتقل من النقصان في رفع المبتدأ ونصب الخبر إلى التمام حين تكتفي بفاعل، وكأن هذا العمل في نظره شبيه لممدوحه الموصوف بالتمام والكمال. وكذلك فإنه أراد أن يقول شيئاً ما عن حروبه الطويلة، فلم يجد أمامه إلاّ مقارنتها بِصَلاته التي صارت مقصورةً لانشغاله بحروبه وغزواته. أفليس في هذا التعبير والتّشبيه تفاهة ما بعدها تفاهة، وانحطاط في وادٍ سحيق من سفساف الكلام الرخيص؟

مدرسة المعنى

أمّا الفريق الثاني الذي انحاز إلى جانب المعنى فنجده ممثَّلاً في رأي ابن جنّي[2] في كتابه «الخصائص»[3]، وفي بعض عبارات الشريف الرضيّ[4] في كتابه «تلخيص البيان في مجازات القرآن»[5]

ولعلّ ما جاء به ابن جني أوضح تعبير عن هذه النظرية، فلقد أفرد باباً مستقلاًّ لهذا الموضوع جعل عنوانه «باب في الردّ من ادعى على

(١) اسمه هِبة الله بن جعفر. شاعر من النّبلاء، مصريّ المولد والوفاة، كان وافر الفضل، جيّد الشّعر، بديع الإنشاء. من كتبه «دار الطّراز» في الموشّحات، و«فصوص الفصول» و«روح الحيوان» و«ديوان شعر». الأعلام ٩/ ٥٧.

(٢) عثمان ابن جني. نحوي، ولد بالموصل ومات ببغداد، له مؤلفات عدة. ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م. الأعلام ٤/ ٣٦٤.

(٣) تحقيق محمد علي النجار، وطبع مطبعة دار الكتب المصرية لعام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

(٤) محمد بن الحسين، المعروف بالشريف الرضي، أشهر شعراء الطّالبيّين. ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م. الأعلام ٦/ ٣٢٩.

(٥) تحقيق محمد عبد الغني حسن، ونشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥

العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني»[1] قال فيه:

«اعلم أن هذا الباب من أشرف فصول العربية، وأكرمها، وأعلاها، وأنزهها، وإذا تأمّلته عرفت منه وبه ما يُؤْنِفُك، ويذهب في الاستحسان له كل مذهب بك. وذلك أن العرب كما تُعْنَى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها».

ويقول: «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها، وحَمَوْا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها[2] وأرهفوها، فلا ترينّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه، وجواره بما يعطّر نشره، ولا يَعُرُّ[3] جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجّنه، ويغضّ منه كدْرة لفظه وسوء العبارة عنه».

إذاً، فرأي ابن جني أن العرب إذا اعتنت بألفاظها، فإنما هي تخدم المعاني التي تحملها تلك الألفاظ، والمعاني عندها أكرم قَدْراً، وأرفع شأناً وأعلى مكاناً من الألفاظ. والشأن ـ كلّ الشأن ـ للمعاني.

* * *

مدرسة النظم

أما الفريق الثالث، وهو الأعم الأغلب في تاريخ رجال البلاغة العربية، فقد وحَّد النظرة إلى وجهي الكلمة: لفظها ومعناها، ورأى فيها

---

(١) الصفحات ٢١٥ ـ ٢٢١

(٢) استعارة من غروب الأسنان، أي أطرافها.

(٣) يعيب، يسيء. وأصله من العُرّ وهو الجَرَب.

جسداً وروحاً متكاملين، إذا أصاب الحَيْفُ أحدَهما اشتكى له الثاني وتداعى.

وكان من زعماء هذا الفريق أكبر رجل عرفته البلاغة العربية على مدى تاريخها الطويل، ذوّاقةً للنّصوص، وعقليّةً راجحةً، ومنصفاً كبيراً، هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني[1]، ولاسيما في كتابه «دلائل الإعجاز».

لقد أزعج الجرجاني ذلك التقدير للألفاظ وتقديمها على المعاني عند من سبقه من النقّاد، حتى إنهم جعلوا للّفظة المفردة مميّزات وصفات لم يستطع أن يتقبلها ذهنه المتمرّس بتفاوت الدّلالات، وقيمة التعبير عن ذلك التفاوت، وكان يحسّ بوعي نقديّ فذّ أن ثنائية اللفظ والمعنى التي تبلورت عند ابن قتيبة قد أصبحت خطراً على النقد والبلاغة معاً. أما على المستوى النقدي فإن الانحياز إلى اللفظ قتل «الفكر» الذي يعتقد الجرجاني أنه وراء عملية أدق من الوقوف عند ميزة لفظة دون أخرى، وأما على المستوى البلاغي فإن الجرجاني لم يستطع أن يتصور الفصاحة في اللفظة، وإنما هي في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيباً من عدة ألفاظ[2]؛ وقد يجد الجرجاني عذراً للقدماء الذين أقاموا تلك الثنائية، ففخموا شأن اللفظ وعظموه، وتبعهم في ذلك مَنْ بعدهم حتى قالوا: «المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ، وعذرهم في ذلك أن المعاني تتبيَّنُ بالألفاظ، ولا سبيل لمن يرتّبها إلى أن يدلّنا على ما صنع في ترتيبها إلاّ بترتيب الألفاظ، لهذا تجوّز القدماء فكنّوا عن ترتيب المعاني بترتيب

---

(١) واضع أصول البلاغة، ومؤلف «دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة» وكتب أخرى. ت ٤٧١هـ/١٠٧٨م. وانظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٣/٢٤٢؛ وشذرات الذهب لابن العماد ٣/ ٣٤٠؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥/١٠٨؛ ودمية القصر للباخرزي ص ١٠٨؛ وفوات الوفيات (طبعة ١٢٩٩) ١/ ٢٩٧؛ وروضات الجنات للخوانساري ص ١٤٣؛ وإنباه الرواة للقفطي ٢/ ١٨٨؛ والبلاغة تاريخ وتطور لشوقي ضيف ص ١٦٠؛ والأعلام ٤/ ١٧٤

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٢٢.

الألفاظ نفسها، ثم تحدثوا عن الألفاظ، وحذفوا كلمة «ترتيب» ثم أسبغوا على الألفاظ صفات فارقة فقالوا: لفظ متمكِّن ولفظ قَلِق. إلخ وإنما مقصودهم المعنى[١]

من جهة ثانية خطّأ الجرجاني المنحازين إلى جانب المعنى بشدة لا تقلّ عن شدّته في تخطئته مَن ذهبوا إلى إبراز مميزات اللفظة المفردة فقال: «واعلم أن الداء الدَّوِيَّ والذي أعيا أمره في هذا الباب غَلَطُ من قدَّم الشِعرَ بمعناه، وأَقَلَّ الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلاّ ما فضل عن المعنى. يقول: «ما في اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلاّ بمعناه؟» فأنت تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر»[٢]

وينفذ الجرجاني بفهم دقيق إلى مشكلة «المعاني مطروحة في الطريق» فيوجّه رأي الجاحظ توجيهاً ملائماً، إذ يرى الجرجاني: أن مصطلح «معنى» كما استعمله الجاحظ ذو دلالة دقيقة، فهو يعبّر به عن «الأدوات الأولية» وتفسيراً لهذا يقارن الجاحظ بين الكلام ومادة الصائغ، فهو يصنع من الذهب والفضة خاتماً، فإذا أردت الحكم على صنعته وجودتها نظرت إلى الخاتم من حيث إنه خاتم، ولم تنظر إلى الفضة أو الذهب الذي صنع منه، فهذه المادة الأولية تشبه المعنى المطروح وليس فيها تفاضل إن شئت أن تحكم على جودة الصنعة نفسها[٣]

ويدل على حسن هذا التوجيه وصوابه ما أورد لنا الجاحظ في كتاب البيان والتبيين من أقوال، فقد روى عن بشر بن المعتمر[٤] قوله: «ومن

---

(١) الدلائل ص ٥٠ ـ ٥١

(٢) الدلائل ص ١٩٤

(٣) الدلائل ص ١٩٦ وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٢٢ ـ ٤٢٤

(٤) بشر بن المعتمر معتزلي من بغداد، تنسب إليه الطائفة البشرية. ت ٢١٠ هـ/ ٨٢٥م. =

أراغ معنى كريماً فليلتمس له قولاً كريماً، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجّنهما». وقوله: «والمعنى ليس يَشْرُفُ بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال. .»[1]

كذلك أورد الجاحظ أقوالاً شبيهة بأقوال بشر بن المعتمر منها: «قال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه ـ: لا يكون الكلام بمستحقٍّ اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[2]

وتحدّث ابن رشيق[3] في كتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» عن اللفظ والمعنى فقال فيهما: «إنهما متلازمان، إذ اللفظ جسمٌ روحهُ المعنى، ومن ثَمَّ كان ما يوصف به أحدهما يُعدّ وصفاً للآخر، فإذا وصف اللفظ بالغرابة أو الابتذال كان ذلك وصفاً للمعنى الجاثم وراءه؛ وكذلك الشأن في المعنى إن وصف بالوضوح أو الغموض كان ذلك وصفاً للّفظ الذي يعرضه ويجلوه. فليس اللفظ والمعنى شيئين منفصلين كالكوب وما يكون فيه من شراب، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته»

***

نستطيع الآن أن نصل إلى محصلة، هي: أن البلاغة لا تكون إلاّ في الحديث الملفوظ أو المكتوب، وأنها لا تفصل بين العلم والذوق، ولا

= الأعلام ٢/ ٢٨

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٥؛ الصناعتين: ١٣٤؛ البلاغة تاريخ وتطور: ٤٢

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٥؛ الصناعتين: ١٣٤؛ البلاغة تاريخ وتطور: ٤٢

(٣) اسمه الحسن بن رشيق القيرواني. أديب، نقّاد، باحث، مغربيّ الأصل، تونسيّ الإقامة. من كتبه: «العمدة في صناعة الشعر ونقده» وكتب أخرى في اللغة والتاريخ والحديث والفقه، وله ديوان شعر. ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م. الأعلام ٢/ ٢٠٤

بين المعنى والمبنى، فالكلام كائن حيّ، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا انفصلا أصبح الروح نَـفَساً لا يتمثل، والجسم جماداً لا يحسّ.

* * *

البلاغة إذن ثنائية التكوين، تقوم على عنصري المعنى والمبنى، أو الجوهر والشكل، ومن تآلفهما تتفاضل الأحكام، وتختلف أساليب الأدباء، ويتمايز الشعراء. فمن عرف سر التعبير الفني الرفيع حاز قصب السبق، ومن أخطأه التوفيق هوى وأسَفَّ، وأهمله الناس.

بين الفصاحة والبلاغة

لقد اشترط العلماء عدداً من الشروط في الكلام البليغ، منها ما يتصل باللفظ المفرد، ومنها ما يتصل بالجملة المركَّبة.

على أننا ينبغي أن نوضح الفرق بين الفصاحة والبلاغة قبل الخوض في تلك الشروط وبحثها.

فالفصاحة: تُطلق في اللغة على معانٍ كثيرة منها: البيان والظهور، قال الله تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾[1] أي أبيَنُ مني مَنْطِقاً وأظهرُ مني قولاً

ويقال: أفصَحَ الصبي في منطقه، إذا أبان وظهر كلامه.

وقالت العرب: أفصَحَ الصبح، إذا أضاء.

وأفصَحَ الأعجمي: إذا أبان بَعْدَ أنْ لم يكن يُفصِح ويُبين.

وفَصُحَ اللسان: إذا عبّر عما في نفسه، وأظهره على وجه الصواب دون الخطأ

والفصاحة: في اصطلاح أهل المعاني هي الألفاظ البيّنة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكتّاب والشعراء.

---

(١) سورة القصص، الآية ٣٤

وتقع وصفاً للكلمة، والكلام والمتكلم[١]

والبلاغة في اللغة: هي الوصول والانتهاء.

يقال: بلغ فلان مراده، إذا وصل إليه. ومبلغ الشيء منتهاه.

وبلغ الرجل بلاغة فهو بليغ، إذا أحسن التعبير عمّا في نفسه.

والبلاغة تقع صفة للكلام والمتكلم.

البلاغة هي الفصاحة

كثيرون من العلماء لم يفرقوا بين معنى البلاغة والفصاحة، وفي رأيهم أنهما تدلان على مقصود واحد. فالإبلاغ عمّا في النفس هو الإفصاح، وأفصح عما في نفسه: أعرب عنها وأبان، وهكذا ترجع الكلمتان إلى معنى واحد من قبيل: «اتفاق المعاني على اختلاف الأصول والمباني»[٢]

قال أبو هلال العسكري: البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلّغتها غيري. ومبلغ الشيء: منتهاه. والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته؛ فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. وقال مشيراً إلى الصلة بين البلاغة والفصاحة: «فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له»[٣]

وفي صحاح الجوهري[٤]: أن البلاغة هي الفصاحة[٥]

---

(١) جواهر البلاغة ٦/٧

(٢) الموجز في تاريخ البلاغة ص ٢٠

(٣) الصناعتين ص ٥؛ والموجز في تاريخ البلاغة ص ٢٠

(٤) الجوهري، إسماعيل بن حماد، مؤلف معجم «الصحاح» ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م. الأعلام ٣٠٩/١

(٥) انظر مادة «بلغ» في الصحاح.

من شروط العلماء في اللفظة المفردة الفصيحة: أن تكون **عذبة في النطق، مألوفة في الاستعمال، صحيحةً في قواعد الصرف والإعراب.**

والتركيب البليغ هو المفهوم عند القراءة، اليسيرُ في النطق لدى اللسان، الخالي من التكرار.

وبعبارة أخرى: التركيب البليغ ما كان سَلِساً عذباً في جهاز الإرسال، وهو الفم، لَيِّناً ولطيفاً على جهاز الاستقبال، وهو الأذن، سالكاً في أجهزة القلب والعقل والوجدان طريقه المقصود.

عذوبة النطق تجعل الكلمة تسيل على اللّسان، لا تعترضها عوارض المخارج الصوتية المتقاربة، ولا حروفها المتنافرة، وتنساب برفق عبر جهاز الإرسال، حتى إذا وقعت على جهاز الاستقبال كانت ألطف وأرقَّ وأوقع، فإذا ما وصلت إلى القلب أدَّت رسالتها، وفعلت فعلها المطلوب.

وعلما الأصوات والتجويد تكفّلا بوصف الحروف وبيان مخارجها بدقة وإحكام[1]

---

(١) حروف اللغة العربية ثمانية وعشرون وهي: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي.
وقد رتبها الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه «العَيْن» حسب مخارجها مبتدئاً من الأقصى والأدخل في الحلق، ومتدرجاً إلى الأقرب إلى الشفتين، وقد كان ترتيبه على الصورة التالية: «ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، أ، ي، ء».
ثم جاء ابن جني وعدّل في ترتيب الخليل بعض التعديل في كتابه «سِرّ صناعة الإعراب».
أما صفات الحروف فتختلف باختلاف مخارجها. وهي:
١ ـ **الأحرف الجَوْفية**: (نسبة إلى الجَوْف الذي ينقطع مخرجها فيه) وقد تسمَّى هوائية.
وهي حروف المدّ المعروفة: الألف مثل نال، والواو مثل طول، والياء مثل نيل. وهي ثلاثة طويلة أما حروف المد القصيرة فهي الحركات: الفتحة ـ وهي ألف=

سئل أعرابي عن ناقته فقال: تركتُها ترعى الهُعْخُع[1] وسمع البلاغيون بهذا الجواب فحكموا على الأعرابي بعدم البلاغة، لأنه استعمل كلمة «الهعخع» غير فصيحة، لتقارب مخارج حروفها.

* *

= قصيرة، والضمة ـ وهي واو قصيرة، والكسرة ـ وهي ياء قصيرة.

٢ ـ **الأحرف الحلقية**: (نسبة إلى الحلق، مخرجها). وهي ستة: الهمزة، ثم الهاء، ثم العين، ثم الحاء، ثم الغين، ثم الخاء.

٣ ـ **الأحرف اللَّهَوية**: (نسبة إلى اللهاة). وهي حرفان: القاف، ثم الكاف.

٤ ـ **الأحرف الشَّجْرية**: (نسبة إلى شجْر الفم، وهو ما بين وسط اللسان، وما يقابله من الحنك الأعلى). وهي ثلاثة: الجيم، والشين، والياء غير المدية مثل ياء بيت.

٥ ـ **الأحرف الحافّية**: (نسبة إلى حافّة اللسان). وهي حرفان: الضاد، واللام.

٦ ـ **الأحرف الذَّلْقيّة. أو الطرفية**: (نسبة إلى ذَلْق اللسان أي طرفه). وهي حرفان: النون، والراء.

٧ ـ **الأحرف النّطعية**: (نسبة إلى نطع الفم، وهو سقف غار الحنك الأعلى). وهي ثلاثة: الطاء، والدال، والتاء.

٨ ـ **الأحرف الأَسَليّة**: (نسبة إلى أَسَلَةِ اللسان، أي رأسه). وتسمى الأحرف الصفيرية وهي ثلاثة: الصاد، والزاي، والسين.

٩ ـ **الأحرف اللّثويّة**: (نسبة إلى اللِّثَةِ، وهي ما حول الأسنان من اللحم، وفيه مغارزها). وهي ثلاثة: الظاء، والذال، والثاء.

١٠ ـ **الأحراف الشَّفَويّة**: (نسبة إلى الشفة): وهي أربعة: الفاء، والباء، والميم، والواو ـ غير المدية.

١١ ـ **الأحرف الخَيْشُوميّة**: (نسبة إلى الخيشوم، وهو أقصى الأنف). وهما حرفان: الميم، والنون، المشددتان في حال الإدغام والإخفاء، والنون الساكنة، والتنوين حين إدغامه بغنّة أو إخفائه.

للتوسّع في هذا البحث راجع: سرّ صناعة الإعراب لابن جني ص ٩؛ و حدوث الحروف لابن سينا؛ وفقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك ص ٤٤؛ ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ص ٣١٩؛ والنَّشْر في القراءات العشر لابن الجزري ١/١٩٩؛ ومقدمة جمهرة لغة العرب لابن دريد؛ وفقه اللغة لمحمد الأنطاكي ص ٢٥٠؛ وصناعة الكتابة للدكتورين فكتور الكك، وأسعد علي ص ٢٢١؛ وأحكام التجويد لمحمد نجيب خياطة.

(١) الهعخع: الكلأ والعشب.

إن كثيراً من علماء البلاغة حملوا على امرىء القيس في قوله:

وفَرعٍ يَزِينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ　　أثيثٍ كَقِنْوِ النخلةِ المتَعَثكِلِ
غدائِرُه مُستَشزِراتٌ إلى العُلى　　تَضِلُّ المَدَارىٰ في مُثَنَّى ومُرسَلِ[1]

فقالوا: لقد خرج الشاعر على حد الفصاحة في استخدامه لفظة «مُسْتَشزِرات» لتقارب مخارج حروفها. فالسين حرف أَسَلِي، يخرج من رأس اللسان، والشين حرف شَجْري، يخرج من شَجْر الفم ـ ما بين وسط اللسان، وما يقابله من الحنك الأعلى ـ والتاء حرف نِطْعي، يخرج من سقف غار الحَنَك الأعلى؛ والراء حرف ذُلْقي، يخرج من طرف اللسان.

وكأنّا بالبلاغيّين يقصدون أن اللسان يتحرّك بالحروف عبر مخارج متقاربة، فلا يكاد يتحرك بالحرف حتى يُضطر إلى الانتقال إلى حرف آخر، ليس بينه وبين سابقه إلا مسافة جد قريبة. وتلك هي الصعوبة.

إن الكلمة السهلة هي التي تتباعد مخارج حروفها، وتريح حركة اللسان، وتسهّل اللفظ عليه.

ولقد سار في هذا الاتّجاه معظم الذين تعرّضوا لهذا البيت من البلاغيين، أمثال السكاكي[2]، والقزويني[3]، والسّبكي[4]، ومن سار في ركابهم.

---

(١) انظر معاهد التنصيص للعباسي ١/ ٤

(٢) هو يوسف بن أبي بكر. السكاكي الخوارزمي، ، احب كتاب «مفتاح العلوم». ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م. الأعلام ٩/ ٢٩٤

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن. أصله من قزوين، ومولده موصل، ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم بدمشق، ثم بمصر. من كتبه «تلخيص المفتاح» و«الإيضاح». ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨م. الأعلام ٧/ ٦٦

(٤) هو أحمد بن علي. بهاء الدين السبكي قضاء الشام عاماً، من مؤلفاته «عروس الأفراح، شرح تلخيص المفتاح». ت ٦٣' هـ/ ١٣٦٢ م. الأعلام ١ / ١٧١

كذلك حمل الباقلاني[١] في كتابه «إعجاز القرآن»[٢] على امرىء القيس حملة شعواء، حين كان يحاول دراسة معلقته ومقارنتها بأسلوب القرآن الكريم؛ ووقف طويلاً أمام لفظة «مستشزرات» وصبّ جام غضبه وسخريته على الشاعر

ونحن نقول: إن ما يقوله البلاغيون والباقلاني في هذا الموضوع صحيح، بشرط أن نلتقط اللفظة، ونفصلها عن السياق الذي وردت فيه، فلا ننظر إلى ما سبقها من كلام، ولا إلى ما لحقها، ولا نلتفت إلى الجوّ الذي يريد الشاعر أن يصوّره.

ولكن هذا الحكم لا يصحّ في الدراسة الأدبية، والنقد، وفي تقرير فصاحة الكلمة أو عدم فصاحتها. ذلك أن الكلمة تحمل إلى جانب جَرْسها ووقعها في الأذن، وحركة اللسان بها. إيحاءً بالمعنى وظلالاً، وموسيقا، وما يسميه علماء الصوتيات بـ «الأونوماتوبيا Onomatopée»[٣] ويعنون بها موافقة الصوت للصورة.

لنعد إلى معلقة امرىء القيس، والبيتين اللذين صوّر بهما فتاته. أراد أن يقول لنا: إن فتاته السمراء، ممشوقة القد، شعرها غزير، كثّ، متجعد، طويل. حاولت تنظيمه، فلفّفَتْه غدائر، ورفعته إلى أعلى على هيئة «شِنْيونْ»[٤]، وكأن الريح ضربته فانفلت جزء منه، وظل جزء آخر مرفوعاً وحاولت تسريحه فضلّت المشط طريقها، وبقي الشعر في اضطراب.

---

(١) هو محمد بن الطيب، قاض بغدادي، من كبار علماء الأشاعرة، من كتبه «إعجاز القرآن» وسواها. ت٤٠٣هـ/١٠١٣م. الأعلام ٧/٤٦

(٢) طبع بدار المعارف، بالقاهرة سنة١٩٥٤م.

(٣) Onomatopoeia (بالإنكليزية) ويفسرها معجم المورد بأنها تسمية الأشياء بحكاية أصواتها.

(٤) Chignon، ويفسّرها المورد بقوله: «كُعَيْكَة، أو جُدَيْلَة شعر ملتفة في مؤخر رأس المرأة»

هذه الصورة الخاصة المتميزة تتفق كل الاتفاق وكلمة: «مُسْتَشْزِرات» بما فيها من حركة لسان مضطربة، لأنّ في شَعر الفتاة، ومحاولة تنظيمه اضطراباً، وتنظيمه لا يكون إلا في حركات صغيرة خفيفة سريعة. ولقد نجح امرؤ القيس في كلمة «مُسْتَشْزِرات» أيّما نجاح، وجار عليه البلاغيون والنقاد.

❊

لنأخذ مثلاً آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾(1)

لندرس الأداء الفنّي الذي قامت به لفظة «اثّاقلتم» بكل ما تكوّنته من حروف، ومن صورة ترتيب هذه الحروف، ومن حركة التشديد على الحرف اللِّثَوي «الثاء»، والمدّ بعده، ثم مجيء القاف الذي هو من حروف القلقلة، ثم التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان، ويخرج صوتها من الأنف. ألا نجد نظام الحروف، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت لنا بالمعنى، قبل أن يَرِدَ علينا المعنى من جهة المعاجم؟ ألا نلاحظ في خيالنا ذلك الجسمَ المثّاقل، يرفعه الرافعون في جَهد، فيسقط في أيديهم في ثقل؟ ألا نحسّ أن البُطْءَ في تلفُّظ الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثّاقل(2)؟

هذه اللفظة غير فصيحة في منطق البلاغيين، وفي منطق قواعدهم. وهي الفصاحة ذاتها في منطق التصوير الفني والتعبير الرفيع.

---

(1) سورة التوبة، الآية ٣٨.

(2) التصوير الفنّي في القرآن ص ٧٩.

لنجرّب أن نكون في صف البلاغيين، وفي حدود قاعدتهم في فصاحة الكلمة، ونبدل المفردة القرآنية، ونضع مكانها كلمة «تثاقلتم» فماذا يحدث؟

ألا نحسّ أن شيئاً من الخفة، والسرعة، والنشاط أوحت به لفظة «تثاقلتم» بسبب رصف حروفها، وزوال حركة الشدة، وسبق التاء للثّاء؟

هذه الخفة والسرعة والنشاط غير مقصودة في الآية القرآنية الكريمة، وهي لا تصوّر حركة المثّاقل المطلوبة؛ فكلمة «تثاقلتم» رغم توافر شروط البلاغيين فيها غير فصيحة في هذا المكان، واللفظة الفصيحة هي: «اثّاقلتم» وحدها

ونستطيع أن نقيس على المثالين السابقين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾[1] وإنا لمدركون أن صورة التبطئة أدتها الكلمة «لَيُبَطِّئَنَّ» بجرسها إضافة إلى ما أدّته النونات في الكلمتين السابقتين من تأكيد لهذا الجَرْس الخاص.

إذن فصاحة الكلمة لا تكون إلا إذا وقعت الكلمة في موقعها المناسب، وأدّت الغاية منها

ويطلب علماء هذا الفن الرفيع من الكلمة أن تكون مأنوسة، مفهومة لدى سامعها وقارئها؛ فإذا ما كانت غريبة المعنى، وحشية المضمون، مهملة الاستعمال، أدت إلى انقطاع سياق الفهم، وأربكت السامع، وأوقعته في تيه من الجهل، فهو لا يدري ما المراد منها، ثم هو لا يدري المعنى الذي بني عليها

أُنْسُ الألفاظ، وسهولة فهمها أساس في التعبير الفني البديع. وهنا

(١) سورة النساء، الآية ٧٢

يعترضنا سؤال: متى تكون الكلمة مأنوسة، سهلة، سائغة في القلوب والألباب؟ ومن يحق له أن يحكم عليها بهذه الأحكام، فيصفها بالإيناس، أو يرميها بالغرابة والوحشة؟ أيمكن لكل قارىء أو سامع أن يطلق مثل هذه الأحكام؟ ألا يختلف الناس في مقادير عقولهم، وأذواقهم، وثقافاتهم، واطلاعهم؟ أيتساوى الجاهل أو شبه الجاهل والإنسان العالم المتبحر؟ أليس في الحياة رجل متعلم ورجل مثقف؟ هذا المتعلم الذي خرج من حدود الأمية والوصف بالجهل، وذاك المثقف الذي تضلّع وارتوى من علوم العربية وآدابها، واطلع على مختلف الفنون والثقافات، ووقف على دقائق اللغة وأسرار العربية، ثم شدا شيئاً قليلاً أو كثيراً من علوم اللغات الأخرى وآدابها، أيمكن أن نسوّي هذا بذلك؟

من الحق، بل من العدل ألا نتيح للناس جميعاً أن يكونوا في مرتبة الحكّام. إن من الواجب أن نقبل حكم فريق ونرفض حكم فريق آخر، لنُبقي للعدالة رونقَها، وللأحكام هيبتها وصدقها

ولو تركنا الحبل على الغارب، وأجزنا لكل إنسان أن يقول ما يشاء، ويقرر ما يرى لاختلط الحابلُ بالنابل، وضاعت الفروق، وضلّت الأحكام طريقها إلى الحق والعدل والصواب، وأدى الأمر إلى أن نشهد أقوالاً وأحكاماً في كثير من الروائع تهبط بها، وتشهد على عدم رونقها وبلاغتها؛ لأن الحاكمين لم يفهموا بعض مفرداتها، ولم يستوعبوا شيئا من مضمونها

المقياس الحق هو الذي يشهد به الإنسان المثقف، وهو القادر على الأحكام الصادقة العادلة وحده. أما الجاهل أو شبه الجاهل فحقه أن يسكت، لأنّا بحكمه لا نعتَدّ، وبقوله لا نرضى.

* *

كذلك يطالب علماء هذا الفن الجميل أن تكون الجملة جارية وفق

قواعد اللغة العربية وقوانين صرفها.

إن في النحو العربيّ موسيقا يدركها كل ذي ذوق رفيع، وإن في صِيَغِ مفرداتها رَنّةً لا أحلى منها ولا أعذب، والخطأ في النحو أو الصرف شبيه بوقوع العازف في النّشاز، يدركه ذو الأذن الموسيقية المرهفة والإحساس النامي.

لقد عاب العلماء أبا النجم[1] حين قال:

الحمـد للّـه العَلـيِّ الأجلَـلِ ... الـواحـدِ الفـردِ القـديـم الأزل[2]

إذ من واجبه أن يقول: «الأجلّ» لأن العربية تفرض هذا.

وعابوا أبا الطيب المتنبي حين مدح سيف الدولة بقوله:

فإنْ يَكُ بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ ... ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ[3]

لأن «بوق» يجمع على «أبواق». ومن الخطأ جمعه على «بوقات».

* * *

أما التركيب البليغ فهو التعبير الواضح المعنى، واليسير عند النطق به، والخالي من الإعادة والتكرار.

وضوح المعنى شرط لبلاغة الكلام، والإخلال به يُوقع القارىء في متاهة لا يدري كيف يسلك سبلها.

---

(١) أبو النجم: هو الفضل بن قدامة، من رجال الإسلام والفحول المتقدمين في الطبقة الأولى منهم. وله مع هشام بن عبد اللملك أخبار طويلة. وكانت وفاته آخر دولة بني أمية سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م. الأعلام ٥/٣٥٧

(٢) ورد هذا البيت في نوادر أبي زيد الأنصاري ص ٤٤، وفي الخصائص ٣/٨٧، والمنصف لابن جنّي ١/٣٣٩، ومعاهد التّنصيص ١/٧، وديوان أبي النّجم ص ٨.

(٣) ديوان المتنبّي ص ٣٥٥، ومطلع القصيدة: «لَيَاليَّ بعدَ الظّاعنينَ شُكولُ».

ولقد ضرب القدماء لنا مثالاً على هذه المتاهة بقول العجّاج[1]:

أيّامَ أبدَت واضحاً مفلَّجاً   أغرَّ برّاقاً، وَطَرْفاً أبْلَجا
ومُقلَةً، وحاجِباً مُزَجَّجاً   وفاحِماً، ومَرْسِناً مُسَرّجاً[2]

واحتاروا فيم يفسرون «ومَرْسِناً مُسَرَّجاً» فالمَرْسَن هو الأنف. والمُسَرَّج: قد يكون من السراج، وقد يكون منسوباً إلى رجل يدعى «سُرَيج» كان يصنع سيوفاً دقيقة شديدة الاستواء. أيقصد الشاعر أنفاً مضيئاً كالسراج، أم أنفاً دقيقاً كالسيوف السريجية؟

هذه الحيرة في معرفة المعنى المراد هي موطن الشاهد، وهي التي أبعدت الصورة من إطار البلاغة المنشودة.

ومن الغلظة **وقوع المعاظلة في الكلام**، فليس يدري القارىء مراد المتكلم، لتقديمه ما حقه التأخير، أو تأخيره ما حقه التقديم.

فقول الشاعر المادح:

ولو أن مجداً أخلَدَ الدهر واحداً   من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مطعِماً[3]

بعيد عن البلاغة، لأن الضمير في «مجدُه» عائد على الاسم المتأخر «مطعماً». والعربيّة تفرض التقدم لمن حقه التقدم، والتأخر لمن حقه التأخر، وتطلب استواء التعبير والتفسير، ووضع كل شيء في مكانه.

يريد الشاعر أن يقول: لو كان مجد الإنسان سبباً لخلوده في هذه الدنيا لكان (مطعم بن عَدِيّ ـ وهو الممدوح) أولى الناس بالخلود، لأنه حاز من المجد ما لم يَحُزه غيره.

---

(١) العجاج: عبد الله بن رؤبة، راجز أموي ت ٩٠هـ/٧٠٨م. الأعلام ٤/٢١٧

(٢) الواضح: النقي. المفلّج: المفترق. أبلج: واضح. مزجج: مرقق. فاحم: أسود. مرسن: أنف. والأبيات في: ديوانه ص ٨؛ ومعاهد التنصيص للعبّاسي ١/٦؛ والمخصّص لابن سِيدَه ٢/ ١٥٥

(٣) البيت لحسّان بن ثابت. ديوانه ص١٢٩

وفي بعض الأحوال تكون اللفظة المفردة يسيرة النطق، سيّالة على الأذن واللسان، ولكنها إذا رُصِفت إلى غيرها نشأ عنها ثقل في اللسان، واضطراب في اللفظ، ويحدث ذلك في الغالب عند توارد ألفاظ متقاربة الحروف أو متقاربة المخارج.

إن من الصعوبة بمكان أن يقرأ أحدنا بيت أبي تمّام بسرعة:

كريمٌ متى أمْدَحْه أمدَحْه والورى ... معي، وإذا ما لُمْتُه لُمْتُهُ وحدي[١]

وكذلك بيت الشاعر

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ ... وليس قربَ قَبرِ حَربٍ قبرُ[٢]

وقول القائلين:

- وقَلقَلتُ بالهمّ الذي قلقلَ الحَشا ... قلاقلَ هَمٍّ كلُّهنَّ قلاقلُ
- لو كنتَ كنتَ كتمتَ السِرَّ كنتَ كما ... كنّا وكنتَ ولكنْ ذاكَ لم يكنِ
- والمجدُ لا يرضى بأن ترضى بأن ... يرضى المعاشر منكَ إلا بالرضا

وتبقى مسألة «تكرار» بعض الألفاظ.

والتكرار إن لم يكن له مسوّغ فنّي فهو ممقوت بغيض، يدل على ضعف ثروة الأديب اللغوية والفكرية، ولكنه يكون رائعاً حين تقتضيه الصورة، أو تطلبه العاطفة، أو ينشده الوجدان. وهل أحلى على المرء من أن يذكر من يحب، أو يكرر اسم من يهوى؟

ونحب هنا، ونحن نتحدث عن التكرار، أن نورد بيت الأعشى[٣]:

---

(١) ديوان أبي تمّام ص ١٢٩؛ والدلائل ص ٤٠ و٤١.
(٢) يُنسَب هذا البيت إلى الجنّ. الحيوان ٦/٢٠٧؛ البيان والتبيين ١/٦٥؛ معاهد التّنصيص للعبّاسي ١/١٢
(٣) ديوان الأعشى ص ٤٥.

وقد غَدَوتُ إلى الحانوت يَتْبَعُن

شاوٍ. مِشَلٌّ. شَلُولٌ. شُلْشُلٌ. شَوِلُ

هذا البيت لم يعجب النقاد والبلاغيين، وقد وصفوه بالبعد عن الفصاحة لكثرة الشينات في شطره الثاني.

ونقول متفقين مع الدكتور محمد النويهي في دراسته للشعر الجاهلي: إنّ هذا الشعر من نوع الدُّعابة، والسُّخْرية «Parody». وإن المراد منه الإضحاك. وهذا البيت يمثل الصورة الواضحة لمرح شاعر فرحان، وشبابٍ خفيفين، منطلقين إلى الحانة، يتراقصون في طريقهم إليها، يميلون يمنةً، ويميلون يسرةً. وغلامهم الرشيق الظريف يلحقهم، ويرقص كرقصهم في خطواته، وكأن الجميع مُنْتَشون بالخمرة قبل أن يصلوا إلى الحانة، أو كأنهم جرعوا كؤوساً قبل أن ينطلقوا إليها، فهم يترنحون، ويتمايلون، ويتراقصون، وهم إذا حاولوا النشيد فلن يستطيعوه، لأن الشارب السكران يتلعثم في كلماته، ويتعثر في نشيده، ولقد فضحت الشينات الستّ التي توالت وتلاحقت في الشطر الثاني الشاعر الأعشى، وكان في تواليها تصوير لهذا السكر المؤدي إلى التلعثم، واضطراب اللسان عند من لا يعقلون.

أوَلسنا نقول عن البلاغة: إنها «**مطابقة الكلام لمقتضى الحال؟**» أليس مقتضى الحال ـ هنا ـ تصوير سكران يتلعثم؟ وهل أقرب إلى تصوير التلعثم من تكرار حروف معيّنة تكراراً كبيراً، وهو مقتضى الحال؟

لذا، فإن لنا أن نخالف البلاغيين والناقدين، في حكمهم على هذا البيت، ونقول: لقد كان الأعشى في قمة الإبداع الفنّي حين كرّر هذه الشينات، وحين والى بين هذه الألفاظ المتقاربة المتشابهة.

*

الخلاصة، البلاغة فن التعبير الجميل، سِمَة الفصحاء والأذكياء من الناس، وأرباب الذوق الرفيع. ولئن عدَّدَ العلماء شروطاً شتى في الكلمة المفردة لتكون فصيحة، وفي التركيب ليكون بليغاً، إنهم ما أغفلوا جانباً آخر لا يقلّ أهمية عن الشروط كلها، ألا وهو موافقة الكلام مقتضى الحال، أو مناسبة المقال للمقام.

وأمام هذا الجانب وحده تهون الشروط الأخرى، وقد يُتسامَحُ بالإخلال فيها، إذا كان الإخلال في سبيل موافقة مقتضى الحال، وملاءمة الموقف، ومناسبة الموضوع.

مقتضى الحال هو في الحقيقة لُبُّ البلاغة وجوهرها، إنه وَضعُ الكلمة المناسبة في المكان المناسب، إنه مخاطبة الناس على قَدرِ عقولهم وفهومهم، إنه حديث الأذكياء بما يليق بالأذكياء، وإنه مخاطبة الأغبياء بما يليق بالأغبياء.

مقتضى الحال هذا أن تخاطب الملوكَ بلغة تليق بالملوك، وتحدّث السوقة بما يفهمه السوقة والرعاع ـ مع مراعاة الفصاحة.

مقتضى الحال أن تخاطب مَن فَقَدَ أمه أو أباه أو حبيب قلبه، بلغة الدمع والحرقة والألم الكاوي؛ وأن تحدّث من طار به الشوق، وسَربَلَه الحظ والتوفيق، وغنّت له الفرحة بلغة الزقزقة والتغريد، وكلمات السعادة والفؤاد الخفّاق.

وإذا أخطأك التوفيق، ولم تُراعِ مقتضى الحال أخفقتَ فيما سعيت إليه، وابتَذَل الناس أسلوبك، وسلقوكَ بألسنتهم، ونبذوك وراءَهم ظِهرِيّاً.

إقرأ هذا الخبر الذي ورد في كتاب الأغاني:

قال الأصمعي[1]: كنت أشهد أبا عمرو بن العلاء[2] وخَلَفاً الأحمر[3] يأتيان بَشّاراً، ويسلّمان عليه بغاية التعظيم، ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت؟ فيخبرهما، وينشدهما. ويسألانه، ويكتبان عنه، متواضعَينِ له، حتى يأتي الظهر، ثمّ ينصرفان عنه. فأتياه يوماً فقالا له: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سَلْم بن قتيبة؟ فقال: هي التي بلغتكما قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب. فقال: نعم؛ بلغني أن سَلْماً[4] يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه. قالا: فأنشدناها. فأنشدهما:

بَكِّرا صاحِبَيّ قَبلَ الهجيرِ إنّ ذاكَ النَّجاحَ في التَّبكيرِ[5]

حتّى فرغ منها. فقال له خَلفَ: لو قلت يا أبا معاذ مكان «إن ذاك النجاح في التّبكير»: «بكّرا فالنجاح في التبكير» كان أحسن. فقال بشار: بَنَيْتُها أعرابيةً وحشية، فقلت: «إن ذاك النجاح في التّبكير» كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكّرا فالنجاح. لكان هذا من كلام المولَّدين، ولا يشبه ذاك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة.

ألا نرى أن بشاراً ـ وهو الشاعر الأعجمي ـ عرف من أسرار اللغة وفنون صوغها ما مكّنه أن يلائم بين الغريب الذي أورده فيها وبين صوغ عبارات ذلك الغريب، وجعله يفضل عبارة على عبارة، لأنها أقرب إلى

---

(١) اسمه: عبد الملك بن قُرَيْب، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. له مؤلفات كثيرة. ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م. الأعلام ٤/ ٣٠٧.

(٢) اسمه زَبّان بن عمار، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. توفي بالكوفة سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م. الأعلام ٣/ ٧٢.

(٣) راوية وعالم بالأدب، من مدرسة البصرة، كان يضع الشعر وينسبه إلى العرب. توفي سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٧م. الأعلام ٢/ ٣٥٨.

(٤) اسمه: سَلْم بن عمرو بن حمّاد. ولقبه: سَلْم الخاسر. شاعر عباسيّ خليع. ت ١٨٦هـ/ ٨٠٢م. الأعلام ٣/ ١٦٨

(٥) انظر: ديوان بشّار ٣/ ٣٠٢؛ ودلائل الإعجاز ص ١٧٨ و ٢٠٦

الأسلوب الذي أراد، ولو غَيَّرَ حرفاً واحداً لكان ذلك من كلام المولَّدين لا من كلام الأعراب، وهو في موقف التحدِّي؟

وها هي ذي رواية ثانية تنبئك شدّة تَحَسُّسِه مواطنَ البلاغة، وتَعرُّفه مقتضيات الأحوال الدقيقة.

قال أحد معاصريه: قلت لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت. قال: وما ذاك؟ قلت: بينما تقول شعراً تثير به النَّقع، وتخلع القلوب مثل قولك:

إذا ما غَضِبنا غَضْبَةً مُضرِيَّةً — هتكنا حجابَ الشمسِ أو تقطرَ الدما
إذا ما أَعَرنا سَيِّداً من قبيلة — ذُرَىٰ مِنبرٍ صَلَّى علينا وسَلَّما[1]

تقول:

رَبابَةُ رَبَّةُ البيتِ — تَصُبُّ الخَلَّ في الزيتِ
لها عَشرُ دَجاجاتٍ — وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوتِ[2]

فقال: لكلٍّ وجهٌ وموضعٌ. فالقول الأول جِدّ، وهذا قلته في «ربابة» جاريتي. وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البَيض، وتحفظه عندها. فهذا عندها من قولي أحسن من «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل» عندك[3]

لقد أخطأ الذين حكموا على البيتين الصغيرين بالركاكة والسخف، إذ لم يلتفتوا إلى موافقة مقتضى الحال. فليس الشعر الفخم الضخم الرنّان الذي يملأ الدنيا زهواً أو دموعاً أو مديحاً هو الشعر الرفيع دائماً، وإنما قد

---

(١) انظر مجالس العلماء للزّجّاجي ص ٢٠٥

(٢) انظر الأغاني ٣/ ٦٠ ولم ترد هذه الأبيات في ديوانه.

(٣) الأغاني: ٣/ ٦٠، وفي دلائل الإعجاز ص ٢١١ و٢٤٣ كلام في غاية الحسن على بيت بشّار «بكرا صاحبيَّ. .».

يكون البسيط الذي يخاطب الفقراء والمساكين، والعامة والكادحين باللغة التي يرتاحون إليها ويفهمون.

وتفيض كتب النقد بأخبار الشعراء الذين أخطأهم التوفيق في هذا المجال، واستحقوا نقداً أو لوماً أو توبيخاً.

من هذه الأخبار أنَّ أبا النّجم دخل على هشام بن عبد الملك وأنشده:

صفـراءُ قـد كـادت ولَمّـا تفعـلِ　　كـأنَّهـا فـي الأفـقِ عَيـنُ الأَحـوَلِ

وكان هشام أحولَ العين، فأمر بحبسه.

ومدحَ جريرٌ عبدَ الملك بنَ مروان بقصيدة مطلعها: «أتصحو أم فؤادك غير صاح» فاستنكر عبد الملك هذا المطلع وقال له: بل فؤادك أنت.

وحمل علماء الذوق على البحتري حين بدأ إحدى قصائده المادحة بقوله: «لك الويلُ من ليلٍ تَقاصَرَ آخِرُه».

وأنشد ابن قيس الرقيات[1] عبدَ الملك بن مروان قصيدته البائية فيه، فلما انتهى إلى قوله:

يـأتَلِـقُ التّـاجُ فـوقَ مَفـرَقِـه　　علـى جبيـنٍ كـأنـه الـذَّهـب

غضب عبد الملك وقال له: قد قلت في مصعب بن الزبير

إنمـا مُصْعَـبٌ شهـابٌ مـن اللـ　　ـهِ تَـجَلَّـت عـن وجهِـهِ الظَّلمـاءُ

فأعطيته المدحَ بكشف الغُمَم، وجلاء الظُّلَم، وأعطيتني من المدح ما لا

---

(١) اسمه: عبيدُ الله بن قيس. من بني عامر. كان شاعر قريش أيام الأمويّين. مقيماً في المدينة المنوّرة. وخرج معه مُصعَب بن الزُّبَيْر على عبد الملك فظفر به ثم عفا عنه. ولُقّب بالرّقيّات لغزله بثلاث نسوة، كلٌّ واحدة اسمها رقيَّة. ت نحو ٨٥هـ/ ٧٠٤م. الأعلام ٤/ ٣٥٢

فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة[1]

* * *

الميزان الدقيق في البلاغة سَوق الكلام وفق مقتضى الحال، ومناسبة المقام. وكل إخلال بهذا الجانب إخلال بالصياغة الفنية، وتهوين من قدرها وقيمتها، والذكيّ من الناس من يضع الشيء في موضعه، ويخاطب الآخرين على قَدر عقولهم ومقاماتهم.

* *

(١) تناولت كتب النقد هذا الخبر وهذا البيت. انظر ديوان الشاعر ص ٩١؛ والصّناعتين ص ٩٨؛ والدّلائل ص ٢١٧؛ وطبقات الشعراء ص ٥٣٠؛ والشعر والشعراء ص ٥٢٤؛ والموشّح ص ١٨٧؛ والعمدة ١/ ٥، والخزانة ٣/ ٢٥٩

علوم البلاغة بين التطوّر والتاريخ

تكاد معظم كتب البلاغة المتداولة بين أيدي المتعلمين في العصر الحديث تتفق على تقسيم هذا العلم إلى ثلاثة أقسام: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع؛ حتى ليوشك المرء أن يعتقد أن البلاغة في أصلها متفرعة إلى هذه الأقسام، وأنه لا يمكن دراستها إلا عن هذه السبيل وحدها.

ولو رجعنا إلى كتب القدماء المتصلة بموضوع البلاغة لرأيناها على صور شتى، وطرائق في التأليف مختلفة كل الاختلاف عن كتب المعاصرين وأساليبهم.

فابن المعتز[1]، هو أوّل من ألّف كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع، وأسماه «البديع» جَمعَ تحت هذا العنوان فن الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدّمها، والمذهب الكلامي. وهي بحوث تتوزّعها الكتب الحديثة في علم البيان تارة، وعلم المعاني تارةً أخرى، وعلم البديع حيناً.

كذلك شأن العلماء الذين سبقوا ابن المعتز، أو عاصروه، أو تأخروا عنه بضعة قرون، فلقد كانوا يضمّنون بحوث البلاغة خلال دراسة الإعجاز

---

(١) اسمه: عبد الله بن محمد المعتزّ بالله، ابن المتوكّل، ابن المعتصم، ابن الرشيد. شاعر مبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، ورحل إلى البادية بطلبه، له مؤلفات كثيرة وديوان شعر. ت ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م. الأعلام ٤/ ٢٦١

القرآني، أو النقد الأدبي، أو عند الحديث عن السرقات الشعرية، أو الكلام عن روعة بيان العرب وفصاحتهم.

وإذا كان ابن المعتز من أبناء القرن الثالث الهجري ـ العاشر للميلاد ـ قد نهج هذا السبيل، فإن الذين جاؤوا من بعده لم يختلفوا عنه في كثير

فقدامة بن جعفر[١]، المتوفَّى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م أدرج حديثه عن البلاغة في كلامه عن نقد الشعر؛ دون أن يميز هذا من ذاك.

ومثله فعل **ابن طباطِبا**[٢] في كتابه «عيار الشعر»، **والآمدي** في كتابه «الموازنة بين الطائيِّين»، **والقاضي الجرجاني**[٣] في «الوَساطة بين المتنبي وخصومه»، **والعسكري** في كتاب «الصناعتَين»، **وابن رشيق** في كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، **وابن سنان الخفاجي**[٤] في «سرّ الفصاحة»، **وعبد القاهر الجرجاني** في كتابيه: «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، **والزمخشري**[٥] في تفسيره «الكشّاف»، مع اختلاف ليس بالكبير بين طرائقهم ومناهجهم.

---

(١) كاتب من البلغاء والمتقدّمين في علم المنطق والفلسفة. أسلم على يد المكتفي بالله العباسي، له كتب كثيرة منها: نقد الشّعر، ونقد النّثر. ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م. الأعلام ٦/ ٣١

(٢) محمد بن أحمد. الحسني العلوي. شاعر وأديب، ولد ومات في أصبهان. له كتب عدة منها: عيار الشّعر، وتهذيب الطبع ت ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م. الأعلام ٦/ ١٩٩

(٣) علي بن عبد العزيز. قاض وعالم بالأدب وشاعر. له كتب عدة، منها: الرساطة، وتفسير القرآن، وتهذيب التاريخ، وديوان شعر. ت٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م. الأعلام ٥/ ١٤٤

(٤) عبد الله بن محمد. الخفاجي الحلبيّ. شاعر، أخذ الأدب عن المعرّي وسواه. ولي على أعزاز من نواحي حلب، وعصى بها، فدسّ له السّمّ فمات ودفن بحلب. له ديوان شعر وكتاب سرّ الفصاحة. ت ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م. الأعلام ٤/ ٢٦٦

(٥) محمود بن عمر. الخوارزميّ الزّمخشريّ، جار الله، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخشر، وسافر إلى مكة وأقام بها زمناً، ثم عاد إلى الجرجانية وتوفي بها. من كتبه: الكشّاف، وأساس البلاغة وكثير غيرهما. كان معتزلياً شديداً على أهل السنّة والمتصوّفة. ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م. الأعلام ٨/ ٥٥

كان الذوق والفن الرفيع والبحث عن روعة التعبير رائدهم، ولم يكن يشغل بالَهم تفريعُ البلاغة وتهشيمُها وتقعيدُ القواعد لها، وتقسيمُها إلى علوم وجزئيات وفرعيات.

«ودارت الأيام، وخلَفَ علماءَ البلاغة البلغاء خَلْفٌ أضاعوا الأصالة، ولم يدركوا مكانة الذوق والحسّ في البلاغة، وفي تقويم آيات الجمال الأدبي. كان معظم هؤلاء من علماء البلاغة، ولكنّهم لم يكونوا بلغاء في أنفسهم، ولم يكونوا متذوّقين، ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوّقوها، فجرّدوا من آثار سلفهم ما يتّصل بالأحكام والقواعد، ثم صنّفوا ذلك مستعينين عليه، كلٌّ بحسب ثقافته، بالفلسفة والكلام والمنطق، وفرّعوا وقسّموا حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية ـ في معظم الأحيان ـ مما كانت به بلاغة؛ جاءت مجرّدة من أسباب الحياة، جافة لا روح فيها، معقدة لا بيان يوضحها، مقيَّدة بالحدود، وإذا هي غادرتها فإلى جدل فلسفيّ لا أثر للبلاغة الحَيّة فيه.

«كانت البلاغة فناً يُدْرَك بالحسّ الجمالي، أو كانت جمالاً يُدرَك بالذوق، فأصبحت على أيديهم أحكاماً أو معارف صاغوها في حدود وتعريفات.

«كنت تقرأ النص أو تسمعه فتأخذك الروعة ويكتنفك السحر، وقد لا تدري سبباً لإعجابك، ولا تعرف علّة لسرورك، حتى يأخذ بيدك ابن الصنعة ـ كالجرجاني والزمخشري ـ فيَقِفُك على موطن الجمال الذي استهواك، ويربط بينه وبين نفسك برباط من ذوقه وفكره، فإذا سبب الإعجاب مكشوف لعينيك، واضح أمام ناظرَيك، فتزداد فوق إعجابك بالجمال إعجاباً بمعرفة سرّه، ونشوةً بإدراك أمره. ثم أصبحت تقرأ النص فلا تشعر أمامه بشيء، ويأتي عالم البلاغة ليقول لك: إن فيه كذا وكذا نوعاً من البديع، فلا يزيد النصُّ جمالاً في عينيك، ولا يغني شعورك بجديد، وإنما هي أسماء تعارفوا

عليها، واصطلاحات وضعوها، يحلّلون النصوص ليستخرجوها منها كما يستخرج عالم الكيمياء عناصر مادة يحلّلها، دون أن يكون لتحليلهم صلة بالجمال، أو رابطة بالذوق.

«ولعلّنا لا نغالي إذا قلنا: إنه لم يأتِ بعد عصر الجرجاني والزمخشري مَن فَهِمَ البلاغة فَهْمَهُما إياها، وإن الذين جاؤوا من بعد إنما كان عملهم ـ في أكثر الأحيان ـ تلخيصاً أو شرحاً، وإنهم لم يزيدوا في فهم البلاغة وشرح فنونها شيئاً ذا بال.

«لقد ابتدأ **الفخر الرازي**[١] في كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» بتلخيص كتب الجرجاني تلخيصاً أخذ يبتعد بالبلاغة عن النصوص، ويقترب بها من الحدود والقوانين والأحكام والقواعد، ثم استكملت تقعيدها على يد السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم».

«**وأبو يعقوب السكاكي** ـ المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ـ كما قال عنه ياقوت[٢] في معجم الأدباء: علّامة، إمام في العربية، والمعاني، والبيان، والأدب، والعروض، والشعر، متكلم، فقيه، متفنّن في علوم شتّى. وضع كتابه «مفتاح العلوم» وقسّمه ثلاثة أقسام: القسم الأول منها للصرف، والقسم الثاني للنحو، والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوي عليه من علوم المعاني والبيان والبديع، وما يلحق بهذه العلوم من قافية وعروض.

---

(١) محمد بن عمر، فخر الدّين الرّازي. الإمام المفسّر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، قرشيّ النّسب، ومولده في الرّيّ. وإليها نسب. له تفسير مفاتيح الغيب. وكتب كثيرة أخرى في أصول الكلام، والبلاغة، والمنطق، والتوحيد وسواها. ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م. الأعلام ٧/ ٢٠٣

(٢) ياقوت بن عبد الله الرّوميّ الحمويّ. مؤرّخ ثقة، من أئمّة الجغرافيّين، ومن العلماء باللغة والأدب. أصله من الروم، وأسر من بلاده صغيراً، واشتراه تاجر بغداديّ اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، فربّاه وعني به ثم أعتقه واستخدمه في تجارته، ورحل كثيراً، ثم استقرّ بحلب ومات فيها. من كتبه: إرشاد الأديب (معجم الأدباء) ومعجم البلدان، ومعجم الشعراء، وكتب أخرى. ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م. الأعلام ٩/ ١٥٧

«وما وضعه السكاكي في مفتاح العلوم من تقسيم لعلوم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده، وهو الذي استقرّت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر. فإذا عرفنا أن السكاكي كان متأثّراً بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية، وعرفنا أنه صبغ البلاغة في كتابه بصبغة هذه العلوم، عرفنا سبب طغيان القوالب والحدود على علوم البلاغة، وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده وعند من قلّده وحذا حذوه.

«ولم يكن العلماء الذين جاؤوا بعد السكاكي أقلّ منا شعوراً بما في كتابه من تعقيد، لذلك فقد بادروا إليه يشرحونه ويوضحون ما استغلق منه، إلا أن هؤلاء العلماء كانوا متأثرين بأصل الكتاب وبمنهج صاحبه، كما كان كلّ منهم متأثراً بثقافته الخاصة وطبيعتها، فكان منهم الفقيه، ومنهم المتكلم، ومنهم النحويّ، وقد ظهر أثر ذلك كله في شروحهم وتعليقاتهم. وبقي «مفتاح العلوم» محوراً للتأليف البلاغيّ، فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والإيضاح والتلخيص والتهذيب.

«ولعل القزويني ـ المتوفَّى سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م ـ من أبرز الذين لخّصوا «مفتاح العلوم»، وكان عالماً في الفقه والعربية.

«أعجب القزويني بكتاب مفتاح العلوم، ولكنه رأى أن الفائدة لا تتم إلا بتهذيبه وترتيبه، فوضع له ملخصاً، قال في أوله: «أما بعد، فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدراً، وأدقها سراً، إذ به تُعرف دقائق العربية وأسرارها، وتكشف عن وجوه العلوم الذي صنّفه الفاضل العلاّمة أبو يعقوب يوسف السكاكي، أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً، لكونه أحسنها ترتيباً، وأتمّها تحريراً، وأكثرها للأصول جمعاً، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار، ومفتقراً إلى الإيضاح والتجريد، ألّفتُ مختصراً يتضمّن ما فيه من القواعد، ويشمل على

ما يُحتاج إليه من الأمثلة والشواهد. وسمّيته «تلخيص المفتاح»[1]».

ثم بدا للقزويني أن «تلخيصه» لا يفي بالغرض، وأنه مختصر إلى حد كبير، فعاد لوضع كتاب آخر يشرح فيه التلخيص وأسماه «الإيضاح شرح تلخيص المفتاح».

وتتابع المؤلفون بعد القزويني يشرحون التلخيص، ويوضحون الإيضاح، ويدورون حول المفتاح، لا يزيدون البلاغة إلا تعقيداً وتقعيراً

وجئنا اليوم، فإذا المفتاح، والتلخيص، والإيضاح هي كتب بلاغتنا نقتفي آثارها، ونسير على نهجها، وكل ما نصنعه، إذا رغبنا في تجديد أو تحديث، هو أن نغيّر مَثَلاً بمثل، ونضع بيتاً شعرياً مكان بيت. ثم يبقى كل شيء سوى ذلك على ما كان عليه.

* * *

تلك هي قصة هذه العلوم البلاغية، المعاني، والبيان، والبديع، وتلك هي خلاصة تاريخها وتطوّرها.

أما سبيلنا في هذا الكتاب فينقسم إلى قسمين، قسم نجري فيه مجرى علماء البلاغة البلغاء، فنسبر النصوص، ونتعمّق فيها لنصل إلى سر جمالها وروعة بيانها، وقسم آخر نحافظ فيه على القواعد التي ترسّخت واستقرّت في معظم الكتب الحديثة. وبهذا الجمع بين طريقتي أرباب الفهم والذوق وأرباب العلم والقواعد نكون قد أوفينا هذا العلم بعض حقه، قَدْرَ ما نستطيع ـ بإذن الله وتوفيقه.

---

(١) الموجز في تاريخ البلاغة ص ١٠٨

علم المعاني

لَئِن قسم العلماء المتأخرون البلاغة إلى ثلاثة أقسام: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع؛ إنا لسوف نبقي على هذا التقسيم في المقام الأول، غير ناسين ما يوجبه وصل هذا العلم بسواه حين يجب الوصل.

يقولون: إن علم المعاني يعلّمنا كيف نركب الجملة العربية لنصيب بها الغرض المعنوي الذي نريد، على اختلاف الظروف والأحوال.

وعلم البيان يعلّمنا كيف نصوغ الصورة الفنية، ونَنوّع الأسلوب، لتظهر الدلالة المقصودة المرادة بوضوح.

وعلم البديع يعلّمنا كيف نوشّي الصورة في معناها ومبناها، ونزخرفها الزخرفة الحية الملائمة ليزيد المعنى بهاءً والمبنى رواءً.

* *

ويبدو أن أول من سمّى علم المعاني بهذه التّسمية شيخ البلاغيين وسيد أرباب الذوق والإبداع عبد القاهر الجرجاني في كتابه: «دلائل الإعجاز» ولقد كان يقصد بكلمة «**المعاني**»: معاني النحو أولاً وأخيراً.

وقبل أن نأخذ عبارات الجرجاني المتّصلة بهذه التّسمية نحب أن نوضح مراده، ليسهل فهم كلامه البديع.

نتعلم في النحو ـ مثلاً ـ مواطن تقديم المبتدأ، ومواطن تأخيره، ومواطن حذفه، أو ذكره. ومتى يكون معرفة، ومتى يصحّ أن يكون نكرة. فإذا ما قرنّا معرفتنا هذه القواعد بالغاية الفنية التي دعت إلى التقديم، أو

التأخير، أو الحذف، أو الذكر، أو التعريف، أو التنكير نكون قد تعلّمنا القاعدة النحوية والمعنى المراد منها، أو الغاية منها في آن واحد؛ وبعبارة أخرى نكون قد ملكنا الجسد ـ الذي هو القاعدة ـ والروح ـ الذي هو المعنى.

مثال آخر قد نجد في العربية عدداً من التراكيب، لا يعدو إعرابها النحوي المبتدأ والخبر؛ من مثل قولنا: زيد كريم، زيد الكريم، الكريم زيد، زيد هو الكريم. فإذا ما اكتفينا بهذا الإعراب بدت هذه العبارات جميعاً على قدم المساواة، في حين أنها تختلف في مدلولاتها المعنوية اختلافاً كبيراً. هذا الاختلاف في المعاني من مهمّات علم المعاني.

مثال ثالث: قد لا ندرك الفرق المعنوي بين قولنا: أنا ما سمعت، وما أنا سمعت، وما سمعت أنا. لكن علم المعاني هو الذي يعلّمنا هذه الفروق، ويقفنا على المعاني المتباينة بين كلٍّ من هذه التراكيب.

لذلك قالوا: إنه علم معاني النحو.

وكم كنا نتمنى في سبيل تطوير علم النحو وتيسيره وتحبيبه إلى المتعلّمين أن يقترن بعلم المعاني، وحينئذ يغدو هذان العِلمان عِلماً واحداً، فيه روح وحياة، وجمال وبهاء!!

لنعد إلى أقوال الشيخ عبد القاهر الجرجاني.

قال يشرح المراد من علم المعاني: إنه «ائتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناها النحوي».

وقال في موطن آخر: «واعلم أنْ ليس النَّظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت، فلا تَزِيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها. هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه، إن كان صواباً، وخطؤه، إن كان خطأ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو

معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له»[1]

إذاً، فعلم المعاني هو روح النحو، وعلته، وبيان أغراضه وأحواله. إضافة إلى هذا فهو يعلمنا متى نجعل الجملة خبرية، ومتى نجعلها إنشائية، ويبين لنا السبب في هذه أو تلك. يعلّمنا متى يجب القصر، والوصل، والفصل، ومتى لا يجب. ثم يأتي لنا مع التعليم ببيان السبب والغاية. يعلّمنا متى ننكّر المسند إليه، ومتى نعرّفه، ومتى نقدّمه، ومتى نؤخره. ولماذا فعلنا ذلك.

أوَليس هو: علم المعاني؟

ولقد ذكر علماء البلاغة المتأخرون لهذا العلم تعريفاً، فقالوا: إنه «**العلم الذي يُعرَف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال**». وهذا التعريف منسوب إلى الخطيب القزويني في كتابه «الإيضاح». وعليه درج سائر المؤلفين المتأخرين.

ونفهم من هذا التعريف أنه يتضمن العلم بشيئين: الأول دراسة الكلمة المفردة في مختلف أحوالها، والثاني مطابقة هذه الكلمة لمقتضى الحال.

ولتسهيل دراسة مباحث هذا العلم قسّموه إلى ثمانية أبحاث. هي:

١ ـ الخبر.
٢ ـ الإنشاء.
٣ ـ أحوال المسنَد إليه.
٤ ـ أحوال المسنَد.

---

(١) دلائل الإعجاز ٦٤ ـ ٦٥

٥ ـ أحوال متعلّقات الفعل.
٦ ـ القصر.
٧ ـ الفصل والوصل.
٨ ـ الإيجاز والإطناب والمساواة.

المبحث الأول

الخبـــر

ليس في تراكيب اللغة العربية ولغات العالم إلاّ لونان من الكلام: خبر وإنشاء.

فالخبر قول يحتمل الصدق والكذب، ويصحّ أن يقال لقائله: إنه صادق فيه أو كاذب

والإنشاء: قول لا يحتمل الصدق والكذب، ولا يصحّ أن يقال لقائله: إنه صادق فيه أو كاذب.

والحكم على صدق الخبر وكذبه يكون بمطابقته للواقع، أو عدم مطابقته، دون النظر إلى نيّة القائل، أو اعتقاده، أو غير ذلك.

فلو قال لنا قائل: «المطر يهطل» فهذا خبر، يحتمل الصدق والكذب. فإذا خرجنا من البيت وتأكدنا من هطول المطر، فالخبر صادق، وإذا لم نَرَ المطر، فالخبر كاذب. ولا عبرة لشخصية المخبر في الحكم على كلامه صدقاً أو كذباً كذلك لا عبرة لو قال: «إني رأيت السماءَ ملبدةً بالغيوم، والهواءَ مشبَعاً بالرطوبة، وتراءى لي أن الصوت الذي أسمعه صوت مطر، ولذلك فأنا صادق لأني أخبر عمّا اعتقدت؛ ولكنا لا نأخذ بهذا المقياس ونكتفي بمقارنة الخبر بالواقع، فما وافقه فهو الصادق، وما خالفه فهو الكاذب[1]

(١) للمعتزلة ـ وعلى رأسهم النظّام والجاحظ ـ رأي آخر. فالنظّام يرى صدق الخبر في=

أغراض الخبر

إذا أردت أن تُخبر إنساناً بخبرٍ ما، فلا يخلو أن يكون المخاطب إمّا جاهلاً بمضمون الخبر، أو غير جاهل.

فإذا كان جاهلاً بالخبر، فإنَّ قصدك إفادته بمضمون ما تقول وتخبر فلو قلت له: «لقد أصدر مجلس الوزراء مرسوماً بمضاعفة رواتب الموظفين» ولم يكن يعرف ذلك، فأنت تفيده خبراً جديداً ويسمي البلاغيون هذا اللون من الإخبار «**فائدة الخبر**»

أما إذا كان من تحدثه عالماً بمضمون حديثك، فأنت لا تفيده جديداً، وإنما غايتك أن تعرّفه أنك عالم بالخبر من ذلك مثلاً قول أبي الطيب لسيف الدولة:

= مطابقته لاعتقاد المخبر أو عدم اعتقاده، فالخبر يكون صادقاً إذا طابق اعتقاد المخبر حتّى ولو خالف ذلك الاعتقادُ الواقعَ. ويكون الخبر كاذباً إذا خالف اعتقادَ المخبرِ حتى ولو وافق ذلك القولُ الواقعَ والحقيقةَ.

ثم جاء الجاحظ وأنكر انحصار الخبر في الصدق والكذب، وزعم أن الخبر ثلاثة أقسام: صادق، وكاذب، وغير صادق ولا كاذب.

فالصادق ـ في زعمه ـ هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق.

والكاذب هو الذي لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بعدم مطابقته.

وأما الخبر الذي ليس بصادق ولا كاذب فليس نوعاً واحداً، وإنما هو أربعة أنواع وهي:

(أ) الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق.

(ب) الخبر المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلاً

(ج) الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق.

(د) الخبر غير المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلاً.

ويبدو أن الكلام حول مفهوم الخبر والإنشاء قد نشأ مع نشأة الجدل في عصر المأمون حول فتنة القول بخَلْق القرآن. وقد تنازع المعتزلة وأهل السنة حول هذا الموضوع أمداً طويلاً، وكان من جملة أسلحة الفريقين هذا التقسيم للخبر.

● راجع في هذا الموضوع: الملل والنحل للشهرستاني؛ والبيان والتبيين للجاحظ؛ وتاريخ بغداد للخطيب؛ ومفتاح العلوم للسّكّاكي؛ ومعظم كتب النقد والبلاغة المؤلفة في القرن الرابع الهجري وما بعده؛ وفقه اللغة للصاحبي؛ وسنن العرب في كلامها لابن فارس.

وقفتَ وما في الموت شَكٌّ لواقفٍ	كـأنّـك فـي جفـن الـرَّدَى وهـو نـائـمُ
تمـرُّ بـكَ الأبطـالُ كلمَـى هـزيمـةً	ووجُهـك وضّـاحٌ وثغـرُكَ بـاسِـمُ
نثـرتَهُـمُ فـوق الأحيـدِبِ نثـرةً	كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهمُ[1]

فإن سيف الدولة يعرف أنه كان واقفاً في مستنقع الموت، مثبتاً رجليه، ويعرف أن أعداءه الأبطال كانوا يهربون من أمامه مجروحين مهزومين، ويعرف أن وجهه كان يعلوه الابتسام، ويعرف ماذا فعل بالذين لم يفِرّوا أو يهربوا لقد نثرهم بسيفه أو بيديه فوق جبل الأحيدب أشلاءَ ممزقين. سيف الدولة يعرف هذا كله، وليس يخبره الشاعر بخبرٍ جديد، وإنما يعيد على مسامعه قصةَ حربٍ مظفَّرة كتبها بسيفه ويديه. يريد أن يقول له: إنه ـ كذلك ـ يعرف ما صنع سيف الدولة. فصاغ ذلك بقالَبِ مديحٍ وتعظيمٍ.

ونظم الشاعر السعودي محمد حسن فقي[2] قصيدة طويلة عنوانها: «لستُ أنا الغادرة» على لسان فتاة أحبت مخلصةً فتاها حباً جماً، فبادلها الوفاءَ غدراً، والحبَّ صَدًّا، وأنكر عليها صدق عواطفها، فراحت تقول:

مـا كنـتُ أعهـدُ منـك نُكـراً، بـل كنـتُ أعهـدُ منـكَ شكـراً
كيـف انطـويـتَ علـى المسـاءة، واحتسبـتَ الـوصـلَ هجـراً
كـانــت أيــادينــا الحســانُ ـ ومــا تَمُــنُّ ـ عليــكَ تَتـرَى
ومضـت بنـا الأيــامُ تنبُــضُ فَــرحــةً، وتفــوحُ عطــراً
كــم آهــةٍ لــكَ عــانَقَتهــا آهــةٌ بحشــايَ حَــرَّى
وتظــلُ تشكــونــي، وتحفــر للهــوى فــي الصــدر قبــراً؟
ويظــل قلبــي فــي يــديــك تُبِيحُــه نــابــاً وظفــراً؟
قــد عشــتُ راسفــةً بقيــدي، مــا أريــم، وعشــتَ حُــرًّا
لَظَلَمتَنــي، وأدرتَ ظهــرَكَ لــي، ومــا استــأهَلــتُ ظَهــراً[3]

---

(١) ديوان المتنبّي ص ٣٨٥ ومطلع القصيدة: «على قدْر أهل العزم تأتيت العزائم»
(٢) شاعر سعوديٍ معاصر، من فحول الشّعراء، له عشرون ديواناً، وكتب نثرية مختلفة.
(٣) من ديوان: «قَدَر. ورجل» والقصيدة بعنوان: «لستُ أنا الغادرة» ص ٢١٩

ألا يعرف ذلك الرجل الجاحد أنه يتصرف تصرفاً جائراً، أو لا يدرك أن الحب الصادق ليس يستحق إلا الوفاء والشكران المبين؟ ألا يعرف أنه كان يسيء إلى مَن أحبه وأخلص له الوداد؟ ألم يكن يغرق في نعمة الوصال، وغمرة الفرح، وشذا الحب المكين؟

ألا يتذكر أن آهاته الحرّى التي كانت تكويه وتشويه، تحيلها عليه برداً وسلاماً؟ مع هذا هو يعرف سوء عمله، ويعرف أنه يحفر للهوى قبراً فقبراً، ويعرف أن قلب فتاته الذي ملّكته إياه كان ينهشه بالناب والظُفر، ثم يرميه أرضاً، ويمشي عليه عذاباً.

يعلم كل ذلك حق العلم، وهل يجهل المرء مقاصد أعماله ونواياه؟ وهل عرفت الدنيا إنساناً ظَلَمَ الناسَ دون أن يدري أنه ظالم؟

هذه الأمور كلها التي وضعتها الفتاة بين يدي فتاها أخبارٌ تَعلَمها هي كما يَعلَمها هو فليست تخبره بجديد، وإنما تذكّره بالهوى الذي على يديه راح يبيد.

وعلماء البلاغة يقولون: إن حديثها من نوع «**لازم الفائدة**». وَأَحْسِنْ به من حديث!!

* *

أما عمر بن أبي ربيعة فيحدثنا عن خبر من نوع آخر. يقول عن إحدى فتياته اللواتي أحببنه:

خبَّروها بأني قد تَزَوَّجْـ ـتُ، فظلَّت تكاتم الغيظَ سِرّا
ثم قالت لأختها ولأخرى جَزَعاً: ليتَه قد تزوّج عشرا
وأشارت إلى نساءٍ لديها لا ترى دونهن للسِّرِّ سَتَرا
ما لقلبي؟ كأنه ليس مني وعظامي إخالُ فيهن فَترا

مـن حـديـثٍ نُمـي إلـيَّ فظيـعٍ   خِلتُ في القلب من تلظّيه جمرا[1]

إنه خبر جديد تفاجأ به هذه الفتاة، فيصعقها ويجعلها شِلواً لا حراك به. بلغها النبأ الفاجع، فتماسكت أول ما سمعته، وحاولت أن تمثل دَورَ مَن لم يهتّم بالخبر. وحين خلت إلى نفسها، ووجدت إلى جانبها من تحفظ سرّها، باحت لها بالحريق الذي فيه تتلظى، وبالنار التي تضطرم في جوانحها، وبالألم الذي يفريها، ويمزق فؤادها.

أليس هذا خبراً جديداً؟ إنها لم تكن تعلمه من قبل، ولم تكن تدري أن الحبيب الذي رمت على يديه آمالها طعنها في الصميم طعنة نجلاء. وبهذا الخبر القتّال تمزقت مشاعرها، وتحطم كبرياؤها، وضاعت آمالها، وتناثرت أحلامها.

إنـه خبـر جـديـد. خبـر زواجـه مـن غيـرهـا، وخبـر أحـزانهـا وآلامهـا. والبلاغيون يسمون هذا اللون «**فائدة الخبر**».

قصائد المديح في الأدب العربيّ، والغزل الذي يتعرض لوصف حبيبات القلوب، وقصائد العتاب واللوم والهجاء، وما يشبهها من النثر تنضوي جميعاً تحت لواءٍ سماه البلاغيون: «**لازم الفائدة**» في الكلام الخبري.

المقياس الدقيق إذاً هو: أن الخبر إذا ألقي إلى من يجهل مضمونه سُمِّيَ «**فائدة الخبر**» وإذا ألقي إلى من يعلم مضمونه دعي «**لازم الفائدة**». ولكلٍّ مقام ومكان.

* * *

يقول البلاغيون: قد يكون للخبر أغراض أخرى ليست «فائدة الخبـر» ولا «لازم فـائـدتـه» تفهـم مـن سيـاق الكـلام وقـرائـن الأحـوال. ويعـددون منهـا: «إظهـار الضعـف»، و «الاستـرحـام والاستعطـاف»،

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٨٥ (تحقيق محمد محيـي الدين عبد الحميد).

و «إظهار التحسّر»، و «المدح»، و «الفخر» وما إلى ذلك.

ونخالفهم في هذا التقسيم، ونقول: ليس للخبر إلا غرضان اثنان أساسيان: فائدة الخبر، ولازم الفائدة. وهذان الغرضان يحملان في الوقت ذاته معانيَ شتّى؛ قد يكون منها إظهار الضعف، أو الاسترحام، أو الاستعطاف، أو التحسّر، أو المدح، أو الفخر، أو غير ذلك.

إن إنشاد المتنبي لسيف الدولة:

وقفتَ وما في الموت شَكٌّ لواقفٍ كأنكَ في جفن الردى وهو نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ وثغرُكَ باسِمُ

هو خبر، من النوع الثاني: لازم الفائدة، وهو في الوقت ذاته مديحٌ له.

وإن قول زكريا ـ عليه السلام ـ وهو يخاطب ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[1] خبر، من نوع «لازم الفائدة»، لأن الله الذي خلق زكريا يعرف أنه وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيباً، وزكريا في الوقت ذاته يهدف من خبره هذا إظهار ضعفه وعجزه.

كذلك الأمر في أمثلة التّندّم، والتحسر، والافتخار وسواها. وعلى القياس نفسه تُقاس.

* *

مؤكـدات الخبـر

في اللغة العربيّة أدوات شتى تجعل التركيب مؤكد المعنى. وكتب النحو تذكرها جميعاً تفصيلاً. وهذه الأدوات هي: «إنّ، ولام الابتداء، وأمّا الشرطية، والسين، وقد «التحقيقية»، وضمير الفصل، والقَسَم،

---

(١) سورة مريم، الآية ٤

ونونا التوكيد، والحروف الزائدة، وأحرف التنبيه». وفيما يلي تفصيل وتوضيح لها[1]:

(١) (إنّ) المكسورة الهمزة المشددة النون

وهي حرف ناسخ، يدخل على المبتدأ والخبر، فينصب المبتدأ، ويسمى اسمها، ويرفع الخبر، ويسمى خبرها. ووظيفتها تأكيد مضمون الجملة أو الخبر، فإذا قال قائل: «إن الحياة جهاد» فكأنه قال «الحياة جهاد» مرتين، إلا أنه أوجز حين قال: إن الحياة جهاد. وإذا دخلت اللام التوكيدية ـ المزحلقة ـ على الخبر، فقال: «إن الحياة لَجِهادٌ». فكأنه كرر «الحياة جهاد» ثلاث مرات. وهذا الإيجاز، أو الاقتصاد في ألفاظ الجملة مع حصول الغرض من التوكيد هو الذي يعطي مثل هذه الجملة قيمتها البلاغية؛ على أساس أن البلاغة هي الإيجاز ـ في رأي بعضهم.

ومن أمثلتها في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، و ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[3] و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾[4]

ومن أحاديث الرسول الكريم ﷺ: «إن المُنبَتَّ[5] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وقوله: «إنما الشعر كلام مؤلَّف، فما وافق الحقَّ منه فهو حَسَن، وما لم يوافق الحقَّ منه، فلا خير فيه».

---

(١) علم المعاني للدكتور عبد العزيز عتيق ص ٥٨ ـ ٦٤
(٢) سورة المائدة، الآية ٣٩
(٣) سورة الإسراء، الآية ٢٧
(٤) سورة النساء، الآية ١٣٧
(٥) المنبتّ: المسرع في عَدْوه.

ومن الشعر

* إنّي لآمَلُ منك خيراً عاجلاً والنفسُ مولَعَةٌ بحبِّ العاجلِ
إنّ البناءَ إذا ما انْهَدَّ جانبُه لم يأمنِ النّاسُ أن ينهدَّ باقيهِ

(٢) لام الابتداء

وفائدتها توكيد مضمون الحكم. وتدخل على المبتدأ نحو «لأَنتَ خَيرُ من عرفتُ». كما تدخل على خبر «إنّ»، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[1]، وعلى المضارع الواقع خبراً لأنّ لِشَبَهِهِ بالاسم، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾[2]، وعلى شبه الجملة، كقوله تعالى مخاطباً محمّداً ـ ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3]

(٣) أمّا: الشرطية (المفتوحة الهمزة، المشددة الميم)

وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[4]

وكقول الشاعر

ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مذاقُهُ فحلوٌ، وأمّا وجهُه فجَميلُ

وفائدة «أما» في الكلام أنها تعطيه فَضلَ توكيدٍ وتقويةِ حكم. تقول مثلاً: «زيدٌ ذاهب». فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصددَ الذهاب وعازمٌ عليه، قلت: «أما زيد فَذاهِبٌ».

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٩
(٢) سورة النحل، الآية ١٢٤
(٣) سورة القلم، الآية ٤.
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٦

(٤) السين

وهي حرفٌ يختص بالمضارع، ويخلّصه للاستقبال. والسين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروهٍ أفادت أنه واقع لا محالة؛ ووجه ذلك أنها تفيد الوعد أو الوعيد بحصول الفعلِ، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتَضٍ لتوكيده وتثبيت معناه.

فهي في مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[1] مفيدة وجود الرحمة لا محالة، ولذلك فهي تؤكد هنا حصولَ فعل الوعد. كذلك هي في مثل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[2]، تؤكد حصول فعل الوعيد الذي دخلت عليه، وتثبت معناه بأنه كائنٌ لا محالة، وإن تأخر إلى حين.

(٥) قد «التحقيقية»

وتدخل على الفعل الماضي، وتفيد تحقُّقَ حصوله، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[3] فهي في مثل هذه الجملة تفيد توكيد مضموبها، أي أن فلاح المؤمنين الخاشعين في صلاتهم حق، ولا محالة حاصل.

وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل، ولا تكون من أدوات التوكيد.

(٦) ضمير الفصل

وهو عادةً ضمير رفع منفصل، وقد يكون أيضاً ضمير نصب منفصل ويؤتى به للفصل بين الخبر والصفة. نحو: «محمد هو النبيّ» فلو لم نأت بالضمير «هو» وقلنا: «محمد النبي» لاحتمل أن يكون «النبي» خبراً عن

---

(١) سورة التوبة، الآية ٧١

(٢) سورة المسد، الآيات ١ ـ ٣.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان ١ و ٢

محمد، وأن يكون صفةً له؛ فلما أتينا بضمير الفصل «هو» تعَيَّنَ أن يكون «النبي» خبراً عن المبتدأ وليس صفة له. فضمير الفصل ـ على هذا الأساس ـ يزيل الاحتمال والإبهام من الجملة التي يدخل عليها، ومن ثَمَّ يفيد ضرباً من التأكيد، ولهذا عدّ من أدوات توكيد الخبر.

(٧) القَسَم

وأحرفه: الباء، والواو، والتاء.

و«الباء» هي الأصل في أحرف القَسَم لدخولها على كل مقسَمٍ به، سواء أكان اسماً ظاهراً أو ضميراً نحو: أقسمُ بالله، وأقسِمُ بِكَ(١)

و«الواو» تختص بالدخول على الاسم الظاهر دون الضمير، نحو: واللهِ إنّ سؤال اللئيم ذلٌّ. وربِّك ما خنتُ لك عهداً.

و«التاء» تختص بالدخول على اسم الله تعالى وحده. نحو قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾(٢)

والحروف التي تدخل على المقسَم عليه ـ أي جواب القسم ـ أربعة هي: «اللام، وإنّ، وما، ولا». فإذا كان المقسَمُ عليه مثبتاً فإن الحروف التي تدخل عليه هي «اللام، وإنّ» نحو: «والله لَموتٌ شريف خير من حياة ذليلة»، ونحو قوله تعالى ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾(٣)

وإذا كان جواب القسم منفياً فإن الحروف التي تدخل عليه هي: «ما، ولا» نحو: «والله ما العمل اليدوي مهانة»، ونحو: «والله لا قصّرتُ في القيام بواجبي».

فالقسم على أي صورة من هذه الصور فيه ضرب من التأكيد، لأن

---

(١) في الشرع لا يجوز القسم إلاّ بالله. وفي رأي السَّلفيّين أن الحلف بغير الله شرك أصغر. ولله وحده أن يقسم بما يشاء.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٥٧.

(٣) سورة العصر، الآيتان ١ و ٢

فيه إشعاراً من جانب المقسِم، بأن ما يقسِم عليه هو أمر مؤكد عنده لا شك فيه، وإلاّ لما أقسم عليه قاصداً متعمداً. ومن أجل ذلك عدّ البلاغيون القَسَم من مؤكدات الخبر.

(٨) نونا التوكيد

وهما: نون التوكيد الثقيلة ـ أي المشددة، ونون التوكيد الخفيفة أي غير المشددة.

ويدخلان على المضارع بشروط، وعلى الأمر جوازاً. وقد اجتمعا في قوله تعالى حكايةً على لسان امرأةِ عزيزِ مصرَ في قصةِ يوسُف: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾(١)

(٩) الحروف الزائدة

وهي: «إنْ» (المكسورة الهمزة، الساكنة النون)، و «أنْ» (المفتوحة الهمزة، الساكنة النون)، و «ما»، و «لا»، و «من» و «الباء» الجارّتان. وليس معنى زيادة هذه الحروف أنها تدخل لغير معنى ألبتة، بل زيادتها لضرب من التأكيد.

فمثال «إنْ»: ما إنْ قَبِلتُ ضيماً. والأصل: ما قبِلت ضيماً. فدخول «إنْ» أكد معنى حرف النفي الذي قبله.

أما «أَنْ» فتزاد بعد «لَمّا» (بتشديد الميم) نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾(٢)

و «ما» تزاد في الكلام لمجرّد التأكيد، وهذا كثير في القرآن الكريم والشعر وسائر الكلام. ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا

---

(١) سورة يوسف، الآية ٣٢.

(٢) سورة يوسف، الآية ٩٦

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1] وأصل تركيب «فإمّا تثقفنهم»: «فإن تَثْقَفَنَّهُمْ». فإنْ: حرف شرط يدل على ارتباط جملتين بعضهما ببعض، و«ما» حرف زائد للدلالة على تأكيد هذا الارتباط في كل حال من الأحوال.

ومثاله من الشعر قول البحتري:

وإذا ما جُفيت كنت حريًّا أنْ أُرى غيرَ مُصبِحٍ حيثُ أُمسِي[2]

ومثاله من شعر البارودي في وصف بعض مظاهر شيخوخته من ضعف بصره وثقل سمعه:

لا أرى الشيءَ حين يَسْنَحُ إلاّ كخيالٍ كأنني في ضبابِ
وإذا ما دعيتُ حِرتُ كأني أسمعُ الصّوتَ من وراءِ حجابِ[3]

و «ما» زيدت بعد «إذا» في المثالين السابقين لتأكيد معنى هذا الظرف. ومثاله من سائر الكلام: لأمرٍ ما جَدَعَ قَصِيرٌ أنفَهُ[4]، وجئتُ لأمرٍ ما.

و «لا» تزاد مؤكدةً ملغاة نحو قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[5] و «لا» زائدة للتأكيد، والمعنى: «ليعلم أهل الكتاب..»، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[6]

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٧. وهذه الآية نزلت في يهود المدينة الذين تكرر منهم نقض عهودهم مع النبي ـ ص ـ. والمعنى: فإما تظفرن بهم فنكل بهم تنكيلاً شديداً يكون سبباً في تشريدهم وتشتيت من يقفون خلفهم من كفار مكة.

(٢) ديوان البحتري ص ١١٥٤ (ط. دار امعارف) ومطلع القصيدة: «صُنْتُ نفسي عمّا يدنّس نفسي».

(٣) ديوان البارودي ص ١٠٥ (ط. دار المعارف) ومطلع القصيدة: «أين أيامُ لذّتي وشبابي».

(٤) مجمع الأمثال ٢/١٩٦

(٥) سورة الحديد، الآية ٢٩

(٦) سورة الواقعة، الآية ٧٥

و «لا» زائدة للتأكيد، والمعنى «فأقسم بمواقع النجوم»

و «من»: قد تزاد توكيداً لعموم ما بعدها نحو «ما جاءنا من أحد» فإن أحداً صيغة عموم، بمعنى ما جاءنا أيّ أحد.

ولا تكون «من» زائدة للعموم إلاّ إذا تقدمها نفي أو نهي أو استفهام بـ «هل»، فالنفي نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[(٢)]، والنّهي نحو لا تهمل من غذاء عقلك. والاستفهام نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[(٣)] ونحو هل من شاعرٍ بينكم؟

و «من» هذه التي تزاد توكيداً لعموم ما بعدها، نفياً كان أو نهياً أو استفهاماً، يكون الاسم الواقع بعدها إما فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأً، كما في الأمثلة السابقة.

و «الباء» ومن استعمالاتها أن تزاد لتوكيد ما بعدها، وقد تزاد كثيراً في الخبر بعد «ليس، وما» النافيتَين، وعندئذٍ تكون زيادتها لتوكيد نفي ما بعدها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[(٥)]، وقول معن بن أوس[(٦)]:

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٩

(٢) سورة الملك، الآية ٣

(٣) سورة الملك، الآية ٣ الفطور: الخلل والصدع.

(٤) سورة البقرة، الآية ٧٤

(٥) سورة الغاشية، الآيتان ٢١ ـ ٢٢

(٦) شاعر فحل، من المخضرمين، له مدائح في جماعة من الصحابة رحل إلى الشام وكفّ بصره، كان يتردّد على ابن عباس وعبد الله بن أبي جعفر بن أبي طالب فيبالغان في إكرامه. ت٦٤هـ/ ٦٨٣م. له ديوان شعر مطبوع. الأعلام ٨/ ١٩٢ والشاهد من ديوانه ص ٨٨، تحقيق القطان.

ولست بماشٍ ما حييتُ لمنكَرٍ　　　مـن الأمـرِ لا يمشـي لمثلِـهِ مِثلـي

فزيادة الباء هنا إنما لتأكيد معنى النفي، أي تأكيد نفي ما بعدها.

(١٠) حـروف التنبيه

وللتنبيه حرفان: ألا، وأما (بفتح الهمزة والتخفيف).

و «ألا» تزاد للتنبيه، وتدل عندئذ على تحقق ما بعدها، ومن هنا تأتي دلالتها على معنى التأكيد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]

و «أما» حرف استفتاح، وهي بمنزلة «ألا» في دلالتها على تحقق ما بعدها تأكيداً، ويكثر مجيئها قبل القسم، لتنبيه المخاطب على استماع القسم وتحقيق المقسم عليه، نحو قول أبي صخر الهذلي:

أَما والذي أبكى وأضحَكَ والذي　　　أمـاتَ وأحيـا والـذي أمـرُهُ الأمـرُ
لقد تَرَكَتني أحسدُ الوحش أن أرَى　　　أليفَيـن منهـا لا يـروعُهمـا النَّفْـرُ[٢]

* * *

لكنّ هناك نوعاً من التراكيب ليس فيها أيٌّ من هذه الأدوات، ومع ذلك فطبيعة تركيبها تجعلها مؤكَّدَة. فلو قلت لأحد أصحابك: «أنت تفي بوعدك» كان كلامك هذا خبراً طلبياً وليس ابتدائياً[٣]، لأن مضمونه يعدل مرتين قولك: تفي أنت بوعدك.

البلاغيون يَعُدّون هذا لوناً من ألوان التأكيد. وهم مُحِقّون في ذلك، لأنّا لو عدنا إلى إعراب هذه الجملة نحوياً لوجدنا «أنت» في محل رفع

---

(١) سورة يونس، الآية ٦٢

(٢) النفر: التفرق أو الفراق. انظر أمالي ابن الشجري ٨/ ١١٥ و ١٤٤

(٣) الأخبار المؤكدة ستلي بعد قليل. ويهمنا هنا أن نعلم أن «الطلبي» هو المؤكد تأكيداً خفيفاً، وأن «الابتدائي» ليس مؤكداً أبداً.

مبتدأ، و «تفي» فعلاً مضارعاً، فاعله مستتر فيه وجوباً تقديره «أنت»، والجملة الفعلية من الفعل «تفي» وفاعله المستتر فيه في محل رفع خبر للمبتدأ «أنت»، تقديره «موف» بوعدك.

إذاً: هذه الجملة تكرّر فيها ضمير المخاطب مرتين، مرةً كان ظاهراً، ومرة كان مضمَراً. وكذلك تكرر الفعل المؤدي لمعنى الوفاء مرتين، الأولى بصورة مضارع، والثانية بصورة الخبر المُؤوَّل.

لهذا، قال البلاغيون: إن الجملة تكون أقوى توكيداً إذا كان المسند فيها خبراً فعلياً. ويمثّلون على هذا بمثال: أنت لا تكذب، ويقولون: إنه أقوى من قولنا: لا تكذب أنت.

* * *

أَضرُب الخبر

مواقف الناس عند تلقيهم خبراً من **الأخبار** متباينة، جماعة يصدقونه، وجماعة يكذبونه، وفئة تشك في تصديقه وتتردد.

هذه المواقف المتباينة يلحظها الذكيّ البليغ، ويبني كلامه وفق مقتضياتها. إنه يعرف سلفاً أن عليه مخاطبة المنكِرين المكذِّبين بأسلوب يختلف عن مخاطبة المتردّدين أو المصدقين، وهذه المعرفة تقوده إلى أن ينوّع أساليب إخباره توكيداً أو عدم توكيد.

فهؤلاء الذين يصدّقون القول رأساً لا يحتاجون إلى أن يؤكِّد المتحدث لهم ما يقول، أو أن يُقسِم على صحته، لأنهم بطبعهم مصدّقون دون هذه الوسائل. ولذلك فإن الخبر الذي يلقى إليهم خالياً من كل توكيد يدعى «**الخبر الابتدائي**».

والذين يَشُكّون أو يتردّدون في قَبول ما يسمعون، يقفون في نقطةٍ حَرِجة، فإما أن يصدقوا إذا تأكدوا، وإما أن يكذبوا. هذا الموقف الوسط المشحون بالشك والتردد يقضي على المخبر أن يكون حكيماً حين

يخبرهم، والحكمة تكون في تلوين الخبر بشيء من التوكيد؛ وهذا التوكيد الصغير كافٍ لضمّهم في سِلك المؤمنين المصدّقين. ومثل هذا اللون من الإخبار الممزوج بمؤكد واحد يسمى في عرف البلاغيين بـ «**الخبر الطلبي**»

أما الفريق الثالث فهو عنيد، **لا** يصدق بسهولة ما يخبَرُ به، بل لا يقف منه موقف الشاكّ أو المتردد بين التصديق والتكذيب، وإنما يقف موقف المنكر؛ ولا يزيله عن إنكاره، ويحرفُه عن موقفه المتصلب إلاّ إذا مُزج خبره بتأكيدات شتى. وهذه التأكيدات كفيلة أن تحشره في زمرة المصدقين والبلاغيون يسمون الخبر المؤكد بأكثر من أداة توكيدية «**الخبر الإنكاري**»

وهكذا ينقسم الخبر بحسب أضربه إلى ألوان ثلاثة:

خبر **ابتدائي**، وهو ما خلا من توكيد.

وخبر **طلبي**، وهو ما أكد بمؤكد واحد.

وخبر **إنكاري**، وهو ما زاد توكيده على مؤكد واحد.

إن الغاية الرئيسية للمخبر أن يوصل من يُخبرُه إلى مستوى التصديق والاقتناع، ولا بدّ له من أن يكون عالماً بنفس مخاطبِه قبل أن يحدّثه بشيء، وحينئذ يكون بليغاً إذ يضع في المقام المناسب الكلام المناسب، وتلك هي البلاغة في حقيقتها وجوهرها. أو ذلك هو مقتضى الحال.

❊

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر

لكن هناك نوعاً من المواقف للناس لا تستوجب اتباع الأساليب التقليدية المذكورة، وإنما تستلزم لوناً آخر من الإخبار، وأسلوباً خاصًّا من التعبير

فلقد تقف أمام منكر لحقيقة من الحقائق، يؤمن بها كل الناس إلاّ

هذا الإنسان، كحقيقة الإيمان بوجود الله مثلاً فالناس جميعاً في مشارق الأرض، ومغاربها، يؤمنون بوجود الله، وإذا اختلفوا فإنما يختلفون في شكل توحيده وصورة عبادته. ومع ذلك فلقد ترى هذا الرجل يابس العقل، محدود التفكير، طائش العقيدة، أضلته الفلسفات، وهوت به الانحرافات، وجذبته المذاهب التافهة السخيفة، فراح يقلدها، ويقول قولَها، وينكر إنكارَها، ويزعم أن الله لا وجود له.

مثل هذا الجاحد المنكر، يحتاج في القانون البلاغي إلى أن تأتي له بخبر فيه كل أنواع التأكيد، لتزيل إنكاره، وتمحق أوهامه ونكرانه، وإذا فعلت ذلك فأنت تقليديٌّ، اتبعت النصّ، وأديت ما وجب عليك، ولكنك لا تُعَدّ من المجتهدين المبدعين.

ولو أردت أن تكون المجتهد المبدع، والبليغ الفصيح إذن لوجب عليك ألاّ تعامله معاملة أمثاله من المنكرين، بل أن تخاطبه بأسلوب أعلى وأقوى وأعنف لتزيل إنكاره، وتحرفه عن جحوده وطيشه. قل له بكلّ بساطة: الله موجود. ثم اسكت.

معنى كلامك: أنه لو رجع إلى فطرته الأولى، وإلى عقله الواعي، ولو عاد ففكر في ذاته وما احتوت، وأرضِه وما ضَمّت، وسمائه وما دار فيها، ووجودِه وخَلقه، لاهتدى إلى الإيمان، ولرجع إلى الحقّ، ولكان من أوائل المؤمنين، ودخل في خانة الضرب الأول الذي لا يحتاج في إخباره لأكثر من خبر ابتدائي خالٍ من أيّ تأكيد وتوثيق.

وقد يكون الأمر بالعكس تماماً: تلتقي برجل يضرب أمه، ويرفسها برجليه، ويسبّها، ويصب فوقها جام سخطه وغضبه؛ وأمه المسكينة بين يديه تتلوى ألماً، وتسيل دماً ودمعاً، والولد العاق لا يأبه لألمها، ولا يهتز لمناظر دمائها ودموعها، ولا يصغي إلى تأوهاتها وصرخاتها كأن في سمعه وقراً، وفي قلبه صخراً.

كيف تخاطب مثل هذا المخلوق؟ أتخاطبه مخاطبة العقلاء؟ أتحدثه

حديث الأبناء البررة؟ أيكفي أن تقول له: «الجنة تحت أقدام الأمهات» ليرتدع ويرعوي؟

إنك إن فعلت ذلك كنت أبعد الناس عن البلاغة وحقها، لأن مثل هذا الإنسان يتصرف تصرف من ينكر الأمومة وحقوقها، وينكر فضلها وواجب الأبناء نحوها. إن هذا يحتاج إلى أن تدله على الطريق السويّ بألف تأكيد. قل له: والله إنك لشديد العقوق، وستنال عاجلاً أو آجلاً جزاء عقوقك. وأكّدْ ما استطعت التوكيد وما ساعدك البيان.

من هذين المثلين يتبين لنا أن خطاب الناس قد يجري على مقتضى الظاهر، وقد يجري على خلاف مقتضى الظاهر. والبليغ البليغ هو الذي يقدِّر المواقف، ويعطي كل موقف حقه من الكلام.

قد تقف أمام شاكٍّ في أمرٍ ما موقف من يرى أن خطابه الصحيح يحتاج إلى مؤكدات عدة، أو لا يحتاج إلى أي تأكيد أبداً، على حسب الوضع الذي يتراءى لك، وحينئذ تخاطبه باللغة التي ترى أنه يفهمها ويقتنع بها.

وهكذا تتنوع أساليب الأخبار، فمنها ما يجري حسب مقتضى الظاهر، ومنها ما يجري على خلاف هذا الظاهر، ولكلٍّ مكانٌ ومقام، والذكي الأريب هو القادر على وضع كل شيء في مكانه اللائق والمناسب، وهو الذي يغوص في أعماق نفس الإنسان الذي يخاطبه، فيفهم ما يعتلج فيها، ويدور في حناياها، وحينئذ يختار الكلمة المناسبة لهذا الإنسان. وذلك مقتضى الحال.

المبحث الثاني

الإنشـــاء

التفريق بين الخبر والإنشاء

يقسم البلاغيون الكلام إلى قسمين، قسم يحتمل التصديق والتكذيب، ويسمونه: خبراً، وقسم لا يحتمل التصديق والتكذيب ويسمونه: إنشاء وقد سبق الكلام بهذا.

أو يقولون: إذا كان للكلام وجود خارجي قبل النطق به، فهو الخبر، وإذا لم يكن له وجود خارجي قبل النطق به، فهو الإنشاء.

فلو سمعنا المتنبي وهو يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعَتْ كلماتي مَن به صَمَمُ[1]

لفهمنا أن الشاعر يفتخر بأدبه، ويتيه على الدنيا بشعره الجزل، وبيانه البديع، حتى الأعمى من الناس، والأصم من بني الإنسان يصبحان قادرَينِ على البصر والسمع؛ فالأعمى ينظر إلى أدبه، والأصم يصغي إلى بيانه.

وطبيعي أن المتنبي لم يعرب عن شديد اعتزازه بشعره إلاّ بعد أن نظم عدداً من القصائد سحرت السامعين، وخلبت ألباب الناس؛ وجعلتهم يعترفون له بالفحولة الشعرية والنظم الرائع. وهذا ما أتاح له أن يفتخر ويتيه ويعبر عن إعجابه بنفسه وفنه.

---

(١) ديوان المتنبّي ص ٣٣٢. ومطلع القصيدة: «وا حَرَّ قلباهُ ممَّن قلبُه شَبِمُ».

إذاً، لشعر المتنبي، وأدبه، وكلماته وجودٌ خارجي قبل أن ينظم هذا البيت، وهذا الوجود الخارجي هو الذي فرز قوله إلى حيّز «الخبر» البلاغي.

أما إذا سمعنا أبا فراس الحمداني وهو يخاطب حمامة تهدل على شجرة أمام باب سجنه في بلاد الروم:

أيا جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا تَعَالَيْ أقاسِمْكِ الهمومَ تعالي
تعالَيْ تَرَيْ روحاً لَدَيَّ ضعيفةً تَرِدَّدُ في جسم يُعَذَّبُ بالِ[1]

فهمنا أنه ينادي جارته الحمامة، ليحدثها أن الدهر لم يعدِل بينه وبينها؛ ثم يطلب منها أن تقترب منه ليقاسمها أتراحه وأشجانه، ويدعوها أن تنزل من عليائها لعلّها ترى روحه الضعيفة في بدنه البالي الحزين.

هذا النداء للجارة «أيا جارتا» وهذه الأفعال الآمرة المتكررة «تعالَيْ» كان يقصد بها أن تستمع لندائه، ثمّ تلبي طلبه.

والحمامة، قبل النداء، لم تكن تدري من أمره شيئاً، وإذا لبت طلبه في المجيء فإنما تلبيتها تتم بعد الانتهاء من كلامه.

ومثل هذا الأسلوب الذي يعتمد على النداء، أو على الأمر، أو على أمثالهما كالاستفهام، والتمني، وما سوى ذلك، يختلف عن أسلوب المتنبي في البيت السابق. وكلام المتنبي له وجود خارجي قبل التعبير عنه، أما النداء، والأمر والنهي والاستفهام والتمني فليس لها وجود خارجي قبل النطق بها، وإنما وجودها يكون بعد التحدث بها. وهذا ما فرزها إلى حيّز الإنشاء

* *

---

(١) اسمه: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبيّ: أمير وشاعر وفارس وابن عم سيف الدولة. وكان سيف الدولة يحبه ويصحبه في غزواته. أسره الروم مرتين، وقال أحلى شعره في الأسر، وهذان البيتان من شعره في الأسر (الروميات). ت ٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م. الأعلام ٢/ ١٥٦

كذلك فإن بإمكاننا أن نقول: إن المتنبي صادق في فخره أو كاذب، ولكنا لا نستطيع تكذيب أبي فراس في ندائه لجارته، وفي دعوتها للمجيء؛ لأن التصديق والتكذيب لا يكونان في كلامٍ ليس له وجود قبل النطق به[1]

أقسام الإنشاء

الإنشاء نوعان: طَلَبيّ، وغير طَلَبّي.

فالإنشاء الطلبي: هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب وأنواعه: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء. وسيأتي تفصيل الحديث عنها بعد قليل.

أما الإنشاء غير الطلبي: فهو ما لا يستدعي مطلوباً. وله صيغ عدة. منها:

(١) أساليب المدح والذم

تقول: نِعمَ الخليفةُ عمرُ، وبئس الرفيقُ سميرٌ
وحبذا صحبةُ المكتب، ولا حبّذا الصديقُ خالدٌ.

ويدخل في ضمن أساليب المدح والذم: الأفعال المحوَّلة إلى معنى المدح والذّمّ كقولك: طابَ عليٌّ نَفْساً، وخَبُث خالدٌ أصلاً

---

(١) عدم احتمال الأسلوب الإنشائي للتّصديق والتّكذيب إنما هو بالنظر إلى ذات الأسلوب، بغضّ النظر عما يستلزمه، وإلاّ فإن كل أسلوب إنشائي يستلزم خبراً يحتمل الصدق والكذب.

فقول الشاعر: «أيا جارتا» يستلزم خبراً هو «أنا أناديك يا جارتي» وقوله: «تَعالَيْ» يستلزم خبراً هو «أنا طالب منك المجيء» وهكذا.

فالخبر الذي يستلزمه الأسلوب الإنشائي ليس مقصوداً لذاته، ولا منظوراً إليه، وإنما المقصود والمنظور إليه هو ذات الأسلوب الإنشائي، وبذلك يكون عدم احتمال الإنشاء للصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الإنشاء.

(٢) أساليب العقود

ويستعمل الفعل الماضي معها كثيراً. فتقول: بعتك هذا الثوب، واشتريت منك هذه الأرض، ووهبت لك هذه الزجاجة، وأعتقت ذلك العبد، وقبلت منك هذا الزواج، وهكذا.

(٣) أساليب القَسَم

ويكون القَسَم بأحرف ثلاثة: الواو، والباء، والتاء ـ كما سلف ـ تقول: والله إن هذا لَحَقٌّ، وبالله ما فعلتُ ذلك، وتالله لأكيدَنَّ أصنامكم، كما يكون القسم بغير تلك الأحرف، فتقول:

لَعَمرُك إنّ البعثَ حق، وأقسم بالله إنّ محمّداً صادق، وحقِّك ما جئت بريبةٍ. وهكذا.

(٤) صيغ التعجب

والتعجب في حقيقته أن ترى الشيءَ يعجبك، تظن أنك لم تَرَ مثلَه؛ ويكون قياساً بصيغتين: ما أفعَلَه، وأفعِلْ به. فتقول: ما أجمَلَ السماءَ، وأَكرِمْ بزيدٍ. ويكون سماعاً بصيغ شتى نحو: لِلَّه درُّهُ عالماً، و ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[1]

(٥) أساليب الرجاء

وأفعال الرجاء هي: عَسَى، وحَرَى، واخلَوْلَق.

تقول عسى الله أن يأتيَ بالفتح، وحَرَى الغافلُ أن يصحُوَ، واخْلَوْلَقَتِ السماءُ أن تمطرَ.

كذلك يكون الرجاء بالحرف «لعلَّ» كقول ذي الرمة[2]:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨

(٢) ذو الرمة غيلان بن عقبة: شاعر أموي مشهور برقة شعره: ت ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م. الأعلام ٥/ ٣١٩

لعـلّ انحـدارَ الـدمـعِ يُعقِـبُ راحـةً   من الوَجدِ أو يَشفِي شَجيَّ البلابل[1]

وإذا كانت «لعلَّ» بمعنى «كي» نحو قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] و ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3] أي كي تتقوا، وكي تتذكروا، وكذلك إذا كانت بمعنى «ظن» كقول امرىء القيس:

وبُدِّلتُ قَرحاً دامياً بعد صحة   لعـلَّ منـايـانـا تَحـولَـنَّ أَبـؤُسـا[4]

فإنها لا تفيد الرجاء، ولا تعد من صيغ الأسلوب الإنشائي غير الطلبي.

* * *

وللتفريق بين الإنشاءين: الطلبي، وغير الطلبي يُلاحَظ في الإنشاء الطلبي أن وجود معنى الجملة يتأخر عن وجود لفظه. على عكس الإنشاء غير الطلبي إذ يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه. فإذا قال شخص لآخر: بعتك هذه السيارة، وقال الآخر قبلت. فإن معنى البيع والقبول يتحقّق في وقت التلفظ بكلمتي بعتك وقبلت. أما إذا دعا رجل ربه: رب اغفر لي، فإن معنى الغفران يتحقق، أو يُرجَى تحققه بعد الدعاء.

ويميل كثير من علماء البلاغة إلى تصنيف الإنشاء غير الطلبي في قسم «الخبر»، ويدللون على ذلك بقصَّة الأعرابي الذي بُشِّر بأنثى فقيل

---

(١) الشجي: الحزين. البلابل: ج بلبال وهو الهم ووسواس الصدر. والمراد بشجيّ البلابل، المحزون الذي أفعم صدره حزناً. انظر ديوان ذي الرّمّة ٢/١٣٣٣ تحقيق الدكتور عبدالقدوس أبو صالح.

(٢) الآيات الكريمة المنتهية بـ «لعلّكم تتّقون» وردت ستّ مرات في القرآن الكريم: في البقرة ٢١ و ٦٣ و ١٧٩ و ١٨٣، والأنعام ١٥٣، والأعراف ١٧١

(٣) الآيات الكريمة المنتهية بـ «لعلّكم تَذَكَّرون» وردت ست مرات في القرآن الكريم: في الأنعام ١٥٢، والأعراف ٥٧، والنّحل ٩٠، والنّور ١ و ٢٧، والذّاريات ٤٩

(٤) ديوان امرىء القيس ص ١٠٧

له: نِعْمَتِ المولودةُ، فأجاب: والله ما هي بِنَعْمَتِ المولودةُ. فكأنه فهم من قول المبشر: «نِعْمَتِ المولودةُ» أنه يُخْبره لما لها من قيمة فضلى. فكذّبه وقال له مؤكداً: والله ما هي بِنِعْمَتِ المولودةُ. والتصديق والتكذيب من صفات الخبر لا الإنشاء.

ويستدلون كذلك على أن حروف القسم أدوات لتأكيد الخبر، ورفعه من رتبة إلى رتبة، أو من ضرب إلى ضرب. والخبر وحده الذي يقبل التوكيد، أما الإنشاء فعلى العكس، لا يقبل التوكيد، ولا تدخله المؤكدات. فإذا قلت: والله إني لصادق، فأنت تخبر عن ذاتك، وكلامك يحتمل التصديق والتكذيب.

ويخيّل إلينا أن ما ذكره العلماء من ألوان الإنشاء غير الطلبي جدير أن يدرج في سلك الأخبار، اللَّهم إلاّ أسلوب الرجاء. فهو أقرب إلى الإنشاء الطلبي وبه ألصق، وببحث التمني يلحق.

كذلك يميل العلماء إلى إخراج الإنشاء غير الطلبي من حيز البلاغة لقلة الفوائد البلاغية في صيغه وأساليبه، ويرون أنه أقرب إلى مباحث النحو من مباحث البلاغة.

أقسام الإنشاء الطَّلبي

حصر علماء المعاني أقسام الإنشاء الطلبي في خمسة أنواع وهي:

١ ـ التمني.
٢ ـ الاستفهام.
٣ ـ الأمر.
٤ ـ النّهي.
٥ ـ النداء.

وها نحن أولاء نبدأ بتفصيل الحديث عنها:

١ ـ التمني

يعرّفه البلاغيون بأنه: طلب الشيء المحبوب الذي لا يُرْجَى، لاستحالة الحصول عليه، أو بُعدِ مناله.

فقول الشاعر:

ألا لَيتَ الشَّبابَ يعودُ يوماً فأخبِرَه بما صنع المشيبُ[١]

وقول الآخر:

لَيتَ الكَواكبَ تَدنو لي فأنظِمَها عقودَ مَدحٍ، فما أرضى لكم كَلمي

الشاعران يطلبان مستحيلاً، إذ مهما تمنى المرء عَود الشباب فإن أمنياته تبقى صرخةً في واد، وحلماً لا يتحقق أبداً. وكذلك تمني الإنسان دنوّ كواكب السماء منه، ليقطفها ويصوغ منها عِقد مدح، يزين بها عنق من يحب، تظل أضغاثَ أحلام، وحُلُمَ شاعر، وحديثَ محبّ.

أما قول أبي فراس مخاطباً سيف الدولة:

فليتكَ تَحلوُ، والحياةُ مَريرَةٌ وَليتَكَ تَرضَى، والأَنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامِرٌ وبيني وبينَ العالَمينَ خَرابُ
إذا صَحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ[٢]

فشيء آخر، لأن تمنيه أن **تحلو** أخلاق سيف الدولة، ويرضى قلبه، وتمتد المودة بينهما دروباً. أمور قد تتحقق، وهي ليست بالمستحيلة، ولكن الجفاء المستحكم، والهجر المرير، والانقطاع المستمر الذي يخيم على قلب سيف الدولة، ويتبدّى في سلوكه نحو الشاعر الأسير، جعل أبا فراس يتخيل أن تلك مطالب، إن كانت ممكنة التحقق في حياة بني

---

(١) ديوان أبي العتاهية ص٤٦ ط. صادر. وقد ورد البيت في الديوان: «فيا ليت الشّباب. . .».

(٢) ديوان أبي فراس ص ٢٧ ط. صادر. وهي من رومياته. وتروى هذه الأبيات ـ كذلك ـ على لسان رابعة العدويّة.

الإنسان، إلا أنها غير ممكنة في حياة سيف الدولة، ولا سيما في تلك الساعة.

ويبدو أن «ليت» وحدها الأداة التي يعبَّر بها عن طلب المستحيل، أو بعيد المنال، وهي أداة التمني الرئيسة.

وقد يشركها في طلب التمني أدوات أخرى، أقل منها شأناً، وقد كانت في أصلها مخلوقة لأغراض أخرى، ثم أصبحت تعاون «ليت» في أغراضها.

تلك الأدوات هي: هل، ولو، ولعلّ، وهلاّ، وألا

فـ «هل» أداة استفهام في الأصل، ولكنها تنتقل من معنى الاستفهام إلى ما يشبه التمني في بعض الأساليب. فلو قلت لإنسان لا تحلم أن يزورك: هل لك أن تشرفني بزيارتك؟ فقد أشربت سؤالك بتمنٍّ أو رجاء؛ وكذلك يقول البلاغيون عن قوله تعالى على لسان الكافرين يوم القيامة: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾(١) إذ لمّا كان عدم وجود من يشفع لهم معلوماً لديهم امتنع تأويل الآية بالاستفهام، وانتقل إلى معنى التمني.

و «لو» حرف شرط غير جازم، وامتناع لامتناع عند النحويين. لكنها قد تكون أداة للتمني كذلك في عرف البلاغيين، كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) حكايةً عن الذين كفروا في الحياة الدنيا، ووجدوا عاقبة كفرهم يوم القيامة. وحينئذ راحوا يتمنون أن لو عادوا كرّة ثانية إلى الدنيا، إذاً لكانوا في مقدمة مواكب المؤمنين. لكن هيهات ما تمنوا

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٠٢

ومن تمنيات البهاء زهير[1]:

يا عاذلي أنا مَن سمعتَ حديثَه فَعَسَاكَ تحنو أو لعلك ترفُقُ
لو كنتَ منّا حيث تسمعُ أو ترى لرأيت ثوبَ الصَّبر كيف يُمَزَّقُ
ورأيت أَلطَفَ عاشقَيْن تشاكيا وعجبتَ ممن لا يحب ويعشق[2]

لقد أفعم الشاعر أبياته بالأماني، واستخدم في سبيل ذلك الأدوات الملائمة لهذه الأماني: فَعَساك تحنو، لعلَّك ترفق، لو كنت منا. ولكنْ بالله متى كان العذول يحنو، أو يرفق بالمحبين؟ وهل يمكن أن يكون من العاشقين؟ إنه لو كان كذلك لخرج من زمرة العاذلين.

و «لعلَّ» أداة ترَجٍّ. والترجي ممكن الوقوع والحدوث غالباً[3] وأدواته شتى. ولكن هذه الأداة «لعلَّ» تشرب معنى عدم توقع الحصول، وبُعد تحقيق المرجوّ، فتنقلب من الرجاء إلى التمني مع الشاعر

أَسِربَ القطا هل مَن يُعيرُ جَناحَهُ لعلّي إلى مَن قد هَويتُ أطيرُ[4]

مستحيل مستحيل أن يعير الطير جناحه، ومن غير المعقول والممكن أن يطير الإنسان طيراناً حقيقياً إلى أحبائه الذين يهواهم.

و «هلاّ» و «ألا». وهما حرفا تنديم إذا سبقتا الفعل المضارع نحو: هلاّ تقوم! وألا تجيء معي!

---

(١) اسمه زهير بن محمد المهلبي، بهاء الدين، شاعر، كاتب، يقول الشعر ويرقّقه فتعجب به العامة، وتستملحه الخاصة. ولد بمكة، ونشأ بقوص، وخدم الملك الصالح أيوب بمصر. له ديوان شعر. ت ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. الأعلام ٣/ ٨٨.

(٢) شرح ديوان بهاء الدين زهير ص ١٧٠، ومطلع القصيدة: وَعَدَ الزّيارةَ طرْفُه المتملّقُ.

(٣) نعود هنا لنذكر أن ما أدرجه البلاغيون تحت عنوان «الإنشاء غير الطلبي» وذكروا أسلوب الرجاء بين أنواعه، جدير أن يرفع من مكانه السابق ويلحق بالإنشاء الطلبي - قسم التمني.

(٤) ديوان العبّاس بن الأحنف ص ١٤٣ وينسبه بعضهم إلى مجنون بني عامر الأمويّ.

ويعتقد البلاغيون أن هاتين الأداتين تضيفان إلى معنى التنديم والتحضيض معنى التمني.

* * *

٢ ـ الاستفهام

أكثر البلاغيين يعرّفون الاستفهام بأنه «طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل» وانفرد مؤلف لبنانيّ بتعريفه قائلاً: «هو السؤال عن حقيقة أمر أو عمل»[(١)]

ويتفقون على تعداد أدواته في أول الأمر، فيذكرون: الهمزة، وهل، ومَن، وما، ومتى، وأيان، وأين، وأنّى، وكيف، وكم، وأي. ثم يبيّنون طريقة استخدام كل أداة منها.

وفي نهاية حديثهم عن الأدوات ومعانيها واستعمالها يأتون إلى تفصيل الكلام عن المعاني التي يخرج إليها الاستفهام عن مقتضى الظاهر ـ وهو جوهر البحث ولبّه الأصيل.

ولقد يلاقي دارسو هذا البحث عَنَتاً في فهم الهمزة و «هل» بصورة خاصة، نظراً لكثرة الاصطلاحات المنطقية التي يستخدمها الشارحون. ويضيعون بين التَّصَوُّر والتصديق، وإدراك المفرد، وإدراك النسبة؛ وفي نهاية الأمر يقعون في أخطاء شتى، تظهر في سوء استعمالهم هذه الأدوات.

ولعلّنا بالشرح التالي نُحْكِم التفصيل، ونيسّر الفهم، ونضع الأمور في نصابها:

* * *

---

(١) هو سعيد سمعان في كتابه «الجديد في البيان والعروض» توزيع مكتبة لبنان، ص ١٢٦

إذا أردت السؤال عن مفرد فاستعمل جميع أدوات الاستفهام إلاّ «هل» والمفرد الذي نعنيه في البلاغة ليس ضدّ المثنى ولا الجمع، بل هو عكس الجملة المؤلفة من فعل وفاعل، أو فعل ونائب فاعل، أو مبتدأ وخبر

قد يكون المفرد ـ في البلاغة ـ دالاً على واحد، أو على اثنين، أو على جمع، وقد يكون فعلاً، أو ظرفاً، أو مفعولاً، أو حالاً

تستطيع أن تقول:

من أنت؟	ومن أنتما؟	ومن أنتم؟
كيف قدمت؟	كيف صحتكما؟	كيف جئتم؟
أي يوم سافرت؟	أي كتب تفضل؟	أي فتاة اخترت؟

وهذا السؤال عن المفرد ـ البلاغي ـ هو الذي دعاه البلاغيون بالتصَوّر. وقالوا: التصَوُّر هو إدراك المفرد.

واشترطوا في السؤال عن المفرد: أن يكون الجواب بتعيين المسؤول عنه، ولم يجيزوا الجواب بـ «نعم» أو بـ «لا». فجواب من أنت؟ طالب. وجواب من أنتما؟ تاجران. وجواب كيف قدمت؟ ماشياً. وجواب أيّ يوم سافرت؟ الإثنين. وهكذا.

وأدوات الاستفهام التي يُسأل بها عن المفرد ـ التصور ـ هي:

الهمزة[1]، ومَنْ، ومتى، وأيان، وأين، وأنّى، وكيف، وكم، وأيّ[2]

(١) تكون الهمزة للتصور، وتكون للتصديق. وسوف يأتي تفصيل الحديث عنها بعد قليل.

معدِن ثمين تصنع منه الحليّ، ويكون نقداً. أو ببيان صفته. نحو ما الذهب؟ فيقال: هو المادة الخام التي تكون جزءاً من التراب في المناجم، والتي تكرر وتخضع لبعض التحويلات حتى تصبح ذهباً خالصاً.

(متى): يُسأل بها عن الزمان في الماضي والمستقبل.

تقول متى جئت من سفرك؟ وتقول: متى تسافر إلى القاهرة؟

(أيّان): يُسأل بها عن الزمان في المستقبل.

وأكثر ما تكون في مواطن التهويل والتفخيم كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[1]

(أين) يُسأل بها عن المكان. تقول: أين الطبيب؟ وجوابه: هو في المستشفى أو في عيادته، أو في منزله.

(أنّى) يُسأل بها عن معانٍ عدة:

أ ـ تكون بمعنى: كيف. نحو قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[2] «بمعنى: كيف يحيي الله هذه بعد موتها؟».

ب ـ وتكون بمعنى: من أين. نحو: أنّى لَكَ هذا المال؟ بمعنى من أين لك هذا المال؟

ج ـ وتكون بمعنى متى. نحو: زرني أنّى شئت (وليست هذه من أدوات الاستفهام إذا كانت بهذا المعنى).

(كيف) يسأل بها عن الحال تقول: كيف أحمد؟ أي كيف حاله؟ وجوابه: صحيح معافى، أو مريض سقيم.

(كـم): يسأل بها عن تعيين العدد. تقول: كم كتاباً في مكتبتك؟ وجوابه: ألف كتاب.

(أيّ) يُسأل بها عن تعيين أحد المتشارِكَيْن في أمرٍ يعمهما. تقول: أي المعدِنَيْن أثمن، الذهب أم الفضة؟ فالذهب والفضة مشتركان في أنهما ثمينان، لكن السائل يريد أن يعرف ما إذا كان الذهب أثمن أم الفضة.

ومن خصائص «أي» أنه يسأل بها عن العاقل، وغير العاقل، والزمان، والمكان، والحال، والعدد، على حسب ما تضاف إليه، فإن أضيفت إلى عاقل أخذت حكم «من» التي يطلب بها تعيين العقلاء، نحو: ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾[3]، وإن أضيفت إلى زمان أو مكان أو عدد أعطيت حكم متى وأين، وكم وهكذا.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٧

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٩

(٣) سورة مريم، الآية ٧٣

يُسأل بها عن المفرد، كما يسأل بها عن الجملة.

فالمفرد، هو الذي دعاه البلاغيون بالتصور. أما الجملة فهي ـ كما بيّنا ـ تشتمل على فعل وفاعل، أو فعل ونائب فاعل، أو مبتدأ وخبر. ويسميها البلاغيون تسميات عدة: فهي «إسناد» يتألف من مسند ومسند إليـه، أو هـي «نسبـة»، أو هـي «حُكـم»، أو هـي«تصـديـق». وفـي بحـث الاستفهام يرجحون التعبير عنها بـ «التصديق» مرة، أو بـ «الحُكم» مرة أخرى. ولهذا يقولون: يُسأل بالهمزة عن التصور وعن التصديق.

فلو أراد سائل أن يستفهم عن حُكم من الأحكام: فإنه يقول: أَكَتَبَ خالد وظيفته؟ السائلُ هنا لا يسأل عن فعل الكتابة بحدّ ذاته. ولا عن خالد. وإنما يسأل هل حصلت الكتابة من خالد؟ والجواب يكون بالإيجاب أو بالسلب، فيقال: نعم، أو يقال: لا

كذلك لو سأل سائل: أأنت المكرم ضيفك؟ فإنه يريد أن يستخبر هل أنت الذي أكرمت ضيفك؟ وهو لا يريد بخطابك شخصَك مستقلاً عن أي عنصر آخر، ولا يريد إكرام ضيفك مقطوعاً عن أي صلة أخرى، وإنما يريد معرفة نسبة الإكرام للضيف، هل حصلت منك أنت؟ ويكون الجواب عن هذا السؤال بنعم أو بلا.

هذا هو سؤال التصديق، أو السؤال عن النسبة، أو الاستفهام عن الحكم. والهمزة هي الأداة الصالحة لهذا الشأن.

وتتميز الهمزة من بقية أدوات الاستفهام الأخرى أنها تصلح للسؤال عن المفرد (التصور) وعن التصديق (النسبة).

* * *

وإذا سئل بها عن المفرد وجب أن يأتي بعدها حرف (أمْ) وهي التي تسمى «المتصلة»، ويتلوها «المعادل» وهو نظير المفرد الذي تلا الهمزة.

فلو سأل سائل: أخالد فاز بالجائزة أم أحمد؟ فإنه يعرف أن هناك رجلاً فاز بالجائزة، ولكنه لا يدري من هو، أكان الفائز خالداً أم أحمد، ويطلب تعيين أحدهما. والجواب لا يكون بـ «نعم» أو بـ «لا»، وإنما يكون بذكر أحد الفائِزَين، فيقال له: خالد، أو أحمد.

ولو سأل أحدهم: أفي الدار كنت يوم الخميس أم في السوق؟ فإنه يريد أن يعرف المكان الذي كنت فيه، ويطلب تعيينه له بذكره.

كذلك لو قال مستفهم: أيوم الخميس عدت من السفر أم يوم الجمعة؟ فإنه يسأل تعيين اليوم الذي عدت فيه.

ولو سألك: أحضرت عرس أخيك أم لم تحضر؟ فإنه يستفهم منك عن حضورك أحصل أم لم يحصل؟

وحين تكون الهمزة للسؤال عن المفرد (التصوّر) فإن المسؤول عنه يأتي بعدها مباشرة، ولا فرق أن يكون اسماً مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً أو فعلاً ماضياً أو مضارعاً.

تقول:

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾

أفي المغرب تقضي إجازتك أم في لبنان؟

أعنباً أكلت أم تفاحاً؟

أراكباً جئت إلى الكلية أم راجِلاً؟

أيوم الجمعة تعطل الدوائر أم يوم الأحد؟

أرضيت بهذه القسِمة أم لم ترض؟

أتحب القَتُول أختَ الرباب أم لا تحبها؟

وفي هذه الهمزة الاستفهامية ـ همزة التصور ـ حاجة إلى الإتيان بحرف «أم» التي يدعوها النحويون بـ «أم المتصلة»، وحاجة إلى ذكر المعادل، وهو الذي يقف على قدم المساواة تُجاه المسؤول عنه الملاصق للهمزة.

وقد يتساهل البليغ، فيحذف «أم» المتصلة والمعادل معاً، إذا قَدّر أن سياق الجملة يوحي بالمحذوف. فلو قلت: أرضيت بهذه القسمة؟ فإن المسؤول يدرك أنك تسأله عن رضاه بهذه القسمة أو عدم رضاه، و «أم والمعادل» لم يُذكر له (أم لم ترض). ومثلها قول تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[1] والتقدير أم غيرك.

❊

وللتفريق بين نوعي الهمزة: همزة التصوّر (المفرد) وهمزة التصديق (النسبة) تفعل ما يلي:

تنظر في معنى السؤال، فإذا كان المطلوب منك تعيين أحد الطرفين، فالهمزة للتصور، وإذا كان المطلوب منك الإجابة بالسلب أو بالإيجاب فالهمزة للتصديق. وهذا لا يكون إلا في السؤال الخالي من «أم» المتصلة والمعادل.

فلو سألك سائل: أيكرم الإنسان في بلدك؟ فأنت أمام احتمالين في فهم السؤال:

الاحتمال الأول: أنه يسألك أيكرم الإنسان في بلدك أم يهان؟ والجواب يكون بتعيين أحدهما. فتقول له: أو تقول له: يهان. وتكون الهمزة للتصور.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٢

والاحتمال الثاني: أنه يسألك هل يحصل تكريم للإنسان في بلدك؟ والجواب يكون بـ: نعم أو بلا. وتكون الهمزة للتصديق.

وهناك ملاحظة ثانية لا بد من ذكرها هنا، وهي: أن الهمزة إذا كانت للتصديق، وجاء بعدها حرف «أم» فإن هذا الحرف يكون بمعنى «بل». ويسميه النحويون بـ «أَمْ» المنقطعة. كقول جرير:

أتصحـو؟ أم فـؤادُك غيـرُ صـاح عشيـةَ هَـمَّ صحْبُـك بـالـرَّواح[1]

فالشاعر يسأل نفسه أو صاحبه: أحصل منك صحو؟ وكأنه عَدَل عن السؤال، وأراد القول: بل فؤادك غيرُ صاح غداة أزمع أصحابك على الرحيل.

الملاحظة الثالثة: إذا وجِّه إليك سؤال مبدوء بهمزة التصديق. فانظر إلى صيغة السؤال، هل هو إيجابي، أو سلبي. ثم أجب حسب ما ترى.

١ ـ إن كانت الهمزة سابقة لفعل موجب ـ أي غير منفي ـ فالجواب بـ «نعم» للإيجاب، وبـ «لا» «للنفي».

ـ مثال ذلك: أتحب طلب العلم؟

إن قلت: «نعم» فأنت تعني أنك تحب طلب العلم. وإن قلت: «لا» فأنت لا تحبه[2]

ـ مثال آخر أأنت ناجح؟

---

(١) ديوان جرير ص ٩٨

(٢) في الفرنسية والإنكليزية تقول الشيء ذاته. نجيب بـ Oui إيجاباً وبـ Non سلباً. مثال ذلك: Est ce que tu aimes ta mére? أتحب أمك؟ فلو قلت: Oui فأنت تحبها. وإن قلت: Non فأنت لا تحبها.
مثال آخر: Do you like your mother? فالجواب بـ «Yes» إيجاباً، وبـ «No» سلباً.

إن قلت: «نعم» فأنت تعني أنك ناجح. وإن قلت: «لا» فتعني أنك لست ناجحاً.

٢ ـ إن كانت الهمزة سابقة لفعل منفي فالجواب يكون «بلى» إذا أردت الإيجاب، و «نعم» إذا أردت السلب، أو النفي.

ـ مثال ذلك: ألم تأخذ مني خير ما عندي؟

لو قلت: بلى. فأنت تقرّ بأنك أخذت خير ما عندي.

ولو قلت: نعم. فأنت تنكر أن تكون أخذت خير ما عندي[1]

ومثله قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾.

* * *

وقد تحذف الهمزة إذا فهمت من الكلام نحو:

بِـاللَّـهِ يـا ظَبيـاتِ القـاعِ قُلْـنَ لنـا: لَيْلايَ منكنَّ أم ليلى من البَشَرِ؟

تقدير الكلام: أَلَيلايَ.

هـل

يُسأل بها عن التصديق وحده.

تقول: هل حضر أخوك دعوة العشاء؟ والجواب «نعم» إذا حضر، و«لا» إذا لم يحضر.

---

(١) في الفرنسية يقابل «بلى» كلمة «Si» ويقابل «نعم» كلمة «Non».
مثال ذلك: Ne voulez-vous pas nager? ألا تحبون السباحة؟ فإذا قلت: «Si» فأنت تريد أنكم تسبحون، وإذا قلت: «Non» فأنتم لا تحبونها.
أما في الإنكليزية فتسأل: «Isn't it true?» أليس ذلك حقاً؟ فالجواب الإيجابي: إما «Yes» وإما «It is» والجواب السلبي: إما «No»، وإما «It is not».

هذه الأداة تختص بالسؤال عن الحكم الذي تتضمنه الجملة، أو النسبة المتولدة من ركني الجملة «المسند والمسند إليه» ولا يليها أم، ولا المعادل.

وإذا جاءت «أم» فهي منقطعة، معناها: «بل»، كقول الشاعر:

ألا ليت شِعْري هل تغيَّرتِ الرَّحَى
رحى الحرب، أم أضحت بفَلْجٍ كما هيا[1]؟

فإن «أم» منقطعة، بمعنى «بل»، وتفيد الانتقال من كلام إلى آخر لا يمتد تأثير الاستفهام إليه. وهذا الكلام الجديد الذي تلا «أم» المنقطعة خبر لا إنشاء.

ويغلب على «هل» السؤال عن الفعل. تقول هل أديت واجبك؟

أما إذا سئلت: هل زيد وصل؟ فمضمون السؤال منصَبّ على «زيد» في المقام الأول: بعكس ما لو قيل: هل وصل زيد؟ فإن السؤال عن الوصول أولاً

إن هذا التأويل لمعنى السؤالين يجعلنا نخالف الذين قالوا: «هل زيد وصل» تعني «هل إن زيداً وصل؟» ويحتجون بأن تقديم «زيد» أفاد وقوع وصوله. لكنهم نسوا أنهم وقعوا في خطأين في آن واحد. الأول أن «إنَّ» وهي حرف توكيد تتناقض وفحوى السؤال، إذ كيف نسأل عن الوصول، ونحن نؤكد في الوقت ذاته وصوله؟ والثاني أنّ حرف التوكيد (إنَّ) لا يأتي بعد (هل).

ويبدو لنا أن ما ذهبنا إليه أرجح، ويمكننا أن نضيف بأن السؤال (هل

---

(١) ينسب هذا البيت إلى مالك بن الرَّيب التّميميّ. وقد أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٤٨٧، والقالي في الأمالي ٣/ ١٣٧، والبغدادي في الخزانة ١/ ٣١٩. وفَلْج: اسم مكان.

زيد وصل؟) أكثر إلحاحاً وأشد استفهاماً من (هل وصل زيد؟)، لأن بعض النحويين يعربون (زيد) في الجملة الأولى «فاعلاً» لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور، ويقدّرون الجملة على الصورة التالية: هل وصل زيد وصل؟

من معاني الاستفهام

لئن عرّف البلاغيون الاستفهام ـ كما ذكرنا ـ بأنه «طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل» إن تعريفهم يصح في صيغ استفهامية، لكنه لا يسري على كل استفهام في اللغة العربية.

فإذا سأل سائل: ما عنوان محاضرة أستاذنا اليوم؟ فإنه يطلب العلم بشيء لم يكن معلوماً لديه من قبل.

لكنه إذا سأل: ترى هل يرجع الدهر أحبابنا الذين ابتعدوا؟ فإنه لا يطلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وإنما يتمنى أن يعود الأحباب ويرجعوا

كذلك لو قال أحد السائلين وهو يشير إلى موكب رائع يمرّ أمامه: من هذا الذي يعظمه الناس؟ فإنه لا يطلب العلم بشيء مجهول لديه قبلاً فحسب، وإنما يُشْرِب سؤاله روح التعظيم والتقدير.

كل ما نريد قوله هو: أن الاستفهام قد يحمل إلى جانب معناه الأصلي معاني أخرى، وقد تكون هذه المعاني أكبر وأهمّ من المعنى الأصلي.

أما إدراك المقصود من الاستفهام فليس له حدّ قاطعٍ، وليس يدخل في تقسيمات وتفريعات، وإنما يستطيع ذو الذوق السليم، والحسّ المرهف معرفة الغاية منه والهدف.

وتسهيلاً لمعرفة هذه المعاني الجديدة عدّد البلاغيون ألواناً منها،

على سبيل التمثيل لا الحصر.

ومن جملة ما ذكروا:

(١) الأمـر

نحو قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[١] أي أخْبرني أيّها السامع عن حال هذا الرجل، هل هو على هدى حين منع عبداً من طاعة ربه أو أكان أمره لغيره بعدم إطاعة ربه من التقوى؟ ثم أخبرني عنه حين كذّب رسولنا وأعرض عن طاعة الله؟ فهل يظن أنه سيفلت من عقابنا؟

ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢] أي أسْلِموا وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: انتهوا

(٢) النهـي

مثله قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾[٣] أي لا تخشوهم فالله أحق بالخشية.

(٣) التشويـق

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤] فلقد حمل الاستفهام معنى التشويق إلى التجارة التي تنجي من العذاب، وتجعل صاحبها من الفائزين الرابحين.

---

(١) سورة العلق، الآيات ٩ ـ ١٣

(٢) سورة هود، الآية ١٤

(٣) سورة التوبة، الآية ١٣، ويمكن اعتبار الاستفهام إنكارياً في الآية.

(٤) سورة الصف، الآيتان ١٠ و ١١

(٤) التسويـة

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[١]

هؤلاء الذين كفروا يعلمون من قبل أنهم أُنذِروا، ومع ذلك فقد أصرّوا على كفرهم وعنادهم. وما مجيء الاستفهام هنا لمعناه الأساسي، وإنما ليفيد معنى التسوية، فكأن إنذار الرسول وعدَمَه على حدٍّ سواء.

(٥) النفـي

كقـولـه تعـالـى ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[٢] وكـأنَّ المعنى: ليس جزاء الإحسان إلاّ الإحسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[٣] أي: لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه.

(٦) الإنكـار

كقوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾[٤] فكأن الآية تعني أن ما يحسبه بعض الناس من أنهم سيفلتون من الحساب أمر منكر، والذين يزعمون ذلك كاذبون.

هذا الإنكار قد يكون للتكذيب ـ كما ذكرنا، وقد يكون للتوبيخ على أمر مضى، كقولك لرجل عصى ربه: أعصيت ربك؟ فأنت توبخه على ما اقترف. ويكون توبيخاً على أمرٍ حاصل نحو: أتعصي ربك يا فلان؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦

(٢) سورة الرحمن، الآية ٦٠

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٥

(٤) سورة القيامة، الآية ٣٦.

والمستنكَر دائماً يلي حرف الاستفهام. نحو: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] و ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[2] و ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[3]

(٧) التعجب

كقول المتنبي لبدر بن عمار الذي صرع أسداً بسوطه:

أمعفِّرَ الليثِ الهِزَبرِ بسوْطِهِ ... لِمَن اتّخذتَ الصّارمَ المصقولا؟[4]

ومنه قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[5]

(٨) التمني

وفي التمني يتوجه السؤال إلى ما لا يعقل نحو قول الشاعر:

أَسربَ القطا! هل من يُعيرُ جَناحَه ... لعلّي إلى من قد هَوِيتُ أطير؟[6]

إن (هل) لم تكن للاستفهام على حقيقته، وإنما هي للتّمني، والتمني هو طلب المستحيل.

(٩) التعظيم

كقول طَرفة:

إذا القومُ قالوا: مَنْ فَتًى؟ خِلتُ أنّني ... عُنِيتُ، فلم أكسَلْ ولم أتَبَلَّدِ[7]

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

(٣) سورة يونس، الآية ٩٩.

(٤) ديوان المتنبي ص ١٤٤ ومطلع القصيدة: «في الخدّ إن عَزَم الخليطُ رحيلاً».

(٥) سورة الفرقان، الآية ٧

(٦) ديوان الأحنف ص ١٤٣

(٧) معلقة طرفة بن العبد.

وقول أبي فراس:

أضاعوني، وأيَّ فتًى أضاعوا ... لِيومِ كَريهةٍ وسَدادِ ثَغرِ

(١٠) التحقير

كقولك: من هذا؟ مشيراً إلى حقارته أو حقارة منزلته. ومنه قول قريش للرسول الكريم: ألهذا دعوتنا؟

(١١) التقرير

كقولك لمتهم: أأنت سرقت المنزل؟ وقولك لولدك الذي يعصي أمرك: ألم أُربِّكَ وليداً؟ ومنه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2]

(١٢) الوعيد

وهو شبيه بالتهديد. كقولك لمن يسيء الأدب: ألم تر ما فعلت بفلان؟

(١٣) الاستبعاد

كقول شوقي وهو منفي في بلاد الأندلس:

أين شرقُ الأرض من أندلس؟ وقولك لرجل عالي المقام: أين أنا منك؟

(١٤) التحسّر

كقول شمس الدين الكوفي في نكبة بغداد

ما للمنازل؟ أصبحتْ لا أهلُها ... أهلي، جيرانُها جيراني

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٢

(٢) سورة الانشراح، الآية ١

فالشاعر يبكي حسرة على ما آلت إليه منازل أهله وبلده، وقد كان سبيله إلى هذه الحسرة ذلك الاستفهام التحسري.

(١٥) التنبيه على ضلال

كقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾[(١)]

فإنه يشير بطريقة الاستفهام إلى أن سبيلهم الذي يسلكونه سبيل غير صحيح.

* * *

وبعد، فليس لمعاني الاستفهام حصر، وليس يمكن أن تُحَجَّرَ في قوالب أو قواعد، فيقال: هذا الاستفهام للتقرير وحده، أو لمعنى التعجب ليس إلاّ، أو للتشويق ولا يحتمل غير ذلك.

إن ذلك بعيد عن روح الاستفهام والبلاغة جملة وتفصيلاً. وإن القواعد المتحجرة المتصلبة لا تكون في هذه الأساليب أبداً.

القاعدة الرئيسة في الاستفهام ـ وفي غير الاستفهام ـ محكومة بسياق الكلام، تابعة لروح المتكلم أو لروح المخاطب، أو لمقتضى الحال.

لنأخذ على سبيل المثال الأداة «كيف» التي قالوا: إنها للسؤال عن الحال. نحو: كيف الصحة؟ لكن إذا وجدنا الشاعر يسأل حبيبه:

حبيبي كيف حتى غِبْتَ عني أتعلم أن لي أحداً سواكا؟[(٢)]

---

(١) سورة التكوير، الآية ٢٦

(٢) شرح ديوان بهاء الدين زهير ص ١٨٦ ط. صادر ومطلع القصيدة «نَهاكَ عن الغواية ما نَهاكا».

آمنّا أنه لا يستفهم عن الحال، وإنما يعجب له كيف غاب عن عيون محبّه، وهو يعلم أنه الحبيب الأوحد.

وإذا قال له:

كُنْ كيف شئتَ، فأنتَ أنتَ المرتَضى ... فهوايَ فيكَ، هوايَ ليس يَحولُ[1]

علمنا أنه يريد من محبوبه أن يتقلب كما يشاء ويهوى، يرضى ويغضب، يَصِل ويقطع، يعطي ويمنع. فالأحوال كلها سواء؛ لأن محبّه باقٍ على الحب أبداً.

وإذا تساءل بقوله:

تصوَّفَ القلب تدليلاً لساكنه ... فما شكى عَنَتَ البلوى ولا عَتَبا
وكيف يوحِشُ قلبي من سُلافته ... وقد أدَرتُ عليه الحبَّ والأدبا؟[2]

عرفنا أنه يستنكر بسؤاله مَن نعت قلب الشاعر بالخلو من الحب، وبالوحشة من الناس والكائنات، لأن القلب الخالي من الحب والأدب قلبٌ ميت. أمّا قلب الشاعر فَحَيٌّ على الدوام.

* * *

الخلاصة، ليس لنا أن نقول إن هذه الأداة لا تعني إلاّ كذا أو كذا، فالسياق وحده هو الذي يضفي على الأداة شعاعاً تتلون بلونه، وتتزيّا بزيّه.

الأديب البليغ هو الذي قرأ ما قبل الاستفهام وما بعده، ونظر في نفسه، أو عرف ما في نفوس الآخرين، فحكم الحكم الحقّ العادل.

* * *

(١) المصدر السابق ص ١٨٩
(٢) ديوان بدوي الجبل ص ٣٩٥ من قصيدة عنوانها «هواجس».

٣ ـ الأمـــر

يعـرّف البـلاغيـون الأمـر بـأنـه: طلـب الفعـل علـى وجـه الاستعـلاء والإلزام.

ويقولون: إن الأمر يجري في صيغ أربع: وهي:

(١) فعل الأمر، نحو: اعمل، اذهب، امض.

(٢) المضـارع المقتـرن بـلام الأمـر، نحـو: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾

(٣) اسم فعل الأمر، نحو: رويدَك، آمين، صَهْ.

(٤) المصدر النائب عن فعل الأمر، نحو: سعياً إلى الخير

ليس المهم في بحث الأمر معرفة صيغه التي يجري بها، وإنما المهم معرفة المعاني التي يخرج إليها عن معناه الأصلي الذي هو «طلب فعل شيء على وجه الاستعلاء والإلزام».

ويبدو أن البلاغيّين صبّوا اهتمامهم على استقصاء وجوه المعاني الجـديـدة، واستخلصـوهـا مـن ثنـايـا الحـال التي يكـون عليهـا المتكلـم أو المخاطب، لا من خلال الصيغ بحدّ ذاتها.

من معاني الأمر

(١) الـدعــاء

وهو طلب الأدنى من الأعلى، والصغير من الكبير، والضعيف من القوي، والمخلوق من الخالق.

فلو قال امرؤ: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾[1]، فإنه لا يأمر ربه أن يغفر له، ويكفِّر عنه سيئاته، ويتوفاه مع الأبرار. وليس من المعقول أن يكون هذا طلباً على وجه الاستعلاء والإلزام، ولكنه طلب فيه ضراعة وخوف، وفيه تذلل واستعطاف، وفيه انقلب معنى الأمر إلى معنى الدعاء.

(٢) الالتماس

وهو طلب الندّ من النِّدِّ، والصديق من الصديق. وفي هذا الطلب لا يكون الأمر أمراً بمعناه الأصيل، وإنما ينقلب الأمر الظاهري إلى التماسٍ رقيق. مَثَلُه قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

يا خليليَّ قرّبا لي ركابي ... واسترا ذاكما غداً عن صحابي
واقرأا منّي السلام على الرَّسـ ... ـمِ الذي من مِنىً بجنبِ الحِصابِ
واعلما أنني أصِبتُ بداءٍ ... داخلٍ في الضلوع دون الحجاب[2]

(٣) الإرشاد

وهو طلبٌ خلا من كل تكليف وإلزام، يحمل بين طياته معنى النصيحة والإرشاد؛ كقول والد لولده: يا بني! استعِذْ بالله من شِرارِ الناس، وكنْ من خيارهم على حَذَر.

فالوالد لا يأمر ولده، ولا يستعلي عليه، ولا يلزمه أو يرهقه، وإنما يقدم له في أسلوب معيَّن خلاصة تجربة إنسانية عاشها، واكتوى بلظاها، وأراد من ولده أن يستعيذ بالله من أشرار البشر ومكائدهم ودسائسهم وحقاراتهم، وأن يحذر ـ في الوقت ذاته ـ من أخيار الناس وسذَّجهم، إذ ربّما أوقعه الساذج في ورطة لا أول لها ولا آخر، بلاهةً وضيقَ تفكير

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٣

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤١٣

(٤) التمنـي

وهو طلب أمر محبوب لا يرجى الحصول عليه لاستحالته أو لتعذّر تحققه. مثل ذلك مخاطبة عنترة لديار عبلة:

يـــا دارَ عبلـــةَ بـــالجِـــواء تكلَّمـــي وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي[١]

فديار عبلة لن تتكلم مهما طال الزمن، ومهما أَمَرَها الشاعر؛ وعنترة يدرك ذلك، وهو في تعبيره هذا لا يقصد الأمر ـ في حقيقة معناه ـ وإنما يتمنى أن تسمع وتنطق وتطيع، لعلَّه يفضي إليها بما يكوي فؤاده، فتخبر عبلةَ الحبيبةَ بما رأت وسمعت.

ومثله مخاطبة امرىء القيس للَّيل:

ألا أيُّهـــا الليـــلُ الطـــويـــل ألا انجَـــلِ بِصبحٍ، وما الإصباحُ منك بأَمَثَلِ[٢]

(٥) التخييـر

وهو طلب لا يُقصد به إلاّ تخيير المخاطب بين أمرين، على أنه لا يحق له أن يأتي بالأمرين معاً في وقت واحد. كقول الفقهاء: تزوّجْ هنداً أو أختَها. فالزواج من هند يحرّم الزواج من أختها ما دامت في عصمة زوجها، وليس للزوج أن يجمع بين الأختين.

(٦) الإبـاحـة

وتكون الإباحة حيث يتوهم المخاطب أن الفعل محظور عليه، فيكون الأمر إذْناً بالفعل، ولا حَرَج عليه في الترك. مثل ذلك قوله تعالى في شأن الصائمين: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ

---

(١) معلقة عنترة ص ١٥٤ (ط. دار الأندلس ـ بيروت).

(٢) معلقة امرىء القيس ص ٨٦ (ط. دار الأندلس ـ بيروت).

﴿ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[1]

(٧) التعجيـز

وهو طلب المخاطب تنفيذ أمر أشبَهَ بالمستحيل، ليظهَرَ عجزُه، ويبينَ ضعفُه، تحدِّياً واستضعافاً. مثل ذلك تحدي القرآن الكريم لأفذاذ العرب الذين يرتابون فيه ويشكون في نزوله على حضرة الرسول الكريم ـ ﷺ ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] وهيهات أن يستطيعوا نظم سورة من مثله، أو عددٍ من الآيات.

وشبيه بالتعجيز مخاطبةُ الفرزدق لخصمه جرير

أولئك آبائي فجِئْني بمثلهم ... إذا جمعَتْنا يا جريرُ المجامِعُ[3]

(٨) التهـديد

وهو طلب، ليس فيه استعلاء ولا إلزام، وإنما فيه قوة، وتهديد، ووعيد للمخاطب. كأن يقول والد لولده: أهمِلْ دروسك وسوف تتحاسب! ومثله قوله تعالى في خطاب الملحدين: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4]

وكقول الشاعر:

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ الليالي ... ولَم تَسْتَحْيِ، فاصنعْ ما تشاءُ

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٧

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٣

(٣) ديوان الفرزدق ص ٤١٨ (ط. دار صادر).

(٤) سورة فصلت، الآية ٤٠.

(٩) التحقيـر

وهو طلب يحمل بين ثناياه التحقير والإهانة والإذلال. كقول جرير في هجاء الفرزدق:

خـذُوا كُحـلاً ومَجْمـرةً وعطـراً فلستُـمْ يـا فـرزدقُ بـالـرجـال
وشُمّـوا ريـحَ عَيْبَتِكـم فلستـم بـأصحـاب العِنـاقِ ولا النّزال[١]

فجرير لا يأمر الفرزدق، ولكنه يسخر منه ويحتقره، ويخاطبه بأسلوب ظاهرُه الأمرُ وباطنه الهجاء. فهو يصور الفرزدق بصورة المرأة التي تتعاطى الكحل والبخور والتجمل؛ وإنه لأصعب ما في الهجاء أن يوصف الرجل بصفات المرأة، وأن توصف المرأة بصفات الرجال.

(١٠) التسـويـة

وهي طلب يوحي بأن الشيئين المراد فعلُهما على حدٍّ سواء. وتختلف عن التخيير والإباحة في هدفها. فلو قال لك قائل: صدّق أو لا تصدق، فإنه يهدف إلى أن تصديقك وعَدَمه على قدم المساواة وحدٍّ سواء.

* *

وبعد، فليس لنا أن نحصر معاني الأمر فيما ذكرنا من بنود، إنما الواجب أن نفهم سياق الكلام، ونعرف نفسية المتكلم أو المخاطب، والجوّ العام الذي يُطلق فيه أسلوب الأمر، وحينئذ نستطيع أن نقول عن هذا الأسلوب القول الحقّ.

وخير مثال على ما نذهب إليه استشهاد بباقة أشعار من عمر أبو ريشة؛ فيها يظهر الأمر في معانٍ متباينة، تختلف باختلاف الظروف والمناسبات

(١) العَيبة: (بفتح العين) وعاء من أَدَم يكون فيه المتاع.

ونفسية الشاعر وجوّ البلد الذي قيلت فيه، أو روح المقام الذي كان فيه تلك اللحظة.

قال في ساعة يأس من محبوبته، وبعد أن رَدَّ إليها رسائلها:

احمليها. ماضي شبابك فيها ... والفتونُ الذي عليه شقيتُ
اِقرَئيها. لا تحجبي الخلد عني ... أُنشريها. لا تتركيني أموت[1]

وقال في موقف آخر شبيه بسابقه:

قفي! لا تخجلي مني ... فما أشقاكِ أشقاني
كلانا مَرَّ بالنُّعمى ... مرورَ المتعب الواني
وغادرها كومض الشَّوْ ... ق في أحداق سكران

* * *

قفي! لن تسمعي مني ... عتابَ المدنَف العاني
فبعد اليوم لن أسأ . ... لَ عن كأسي وندماني
خذي ما سطَّرتْ كفّا . ... كِ من وَجدٍ وأشجان
لِنَطْوِ الأمسَ ولْنُسْدِلْ ... عليه ذيل نسيان
فإنْ أبصرتِني، ابتسمي ... وحَيّيني بتحنان
وسِيري سَيْرَ حالمةٍ ... وقولي. كان يهواني[2]

* * *

وقال غاضباً حين ضيّعه قومه متمثلاً بنسر جريح:

أصبحَ السّفحُ ملعباً للنسور ... فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري

---

(١) ديوان عمر أبو ريشة ص ٢٠٦ (ط. دار العودة).
(٢) ديوان عمر أبو ريشة ص ٣١٢.

إنّ للجـــرح صيحـــةً فـــابعثيهـــا في سمـاع الـدُّنى فحيـحَ سعيـر
لَمْلمـي يـا ذُرى الجبـال بقـايـا النَّسْـ ـر وارمـي بهـا صـدورَ العصـور
إنّــه لــم يعُــد يكحّــل جفــنَ النّجـ ـــم تِيهــاً بــرِيشــهِ المنثــور[1]

وقال مبتهجاً بجلاء الفرنسيين عن وطنه الحبيب:

يا عروسَ المجد، تيهي واسحبي في مغـانينـا ذيـولَ الشّهـب
قـد عـرفنـا مَهـركِ الغـالـي فلـم نُـرخـص المهـرَ ولـم نَحْتَسِـب
وأرقنـــاهـــا دمـــاءً حـــرّةً فاغرفي ما شئتِ منها واشربي
وامسحـي دمـع اليتـامـى وابسمـي وألمسي جرح الحزانَى واطربي[2]

* * *

الأمر في أبيات الشاهدين الأول والثاني انصرفا إلى معنى الرجاء والالتماس، كما انصرف في أبيات قصيدة النسر إلى معنى التمني الذي يستحيل تحققه، وانصرف في أبيات الشاهد الأخير إلى التغني والمديح والتعالي الوطنيّ الذي ما بعده من تعالٍ.

* * *

٤ ـ النهي

يعرفه البلاغيون بأنه: «طلب الكفِّ عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام».

ولـه صيغـة واحـدةٌ وهـي الفعـل المضـارع المقـرون بـ «لا» النـاهيـة الجازمة، كقولك: لا تهملْ واجبك.

---

(١) المصدر السّابق ص ١٥٨

(٢) المصدر السّابق ص ٤٣٧.

ويهتمّ علماء البلاغة بالمعاني التي يخرج منها معنى النهي على حقيقته إلى المعاني الأخرى التي تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال.

من معاني النهي

(١) الدعـاء

ويكون من أدنى إلى أعلى، ومن صغيرٍ إلى كبيرٍ، ومن ضعيفٍ إلى قويٍ، ومن مخلوقٍ إلى خالق ـ كما في الأمر ـ. فقول المؤمن ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[١] ليس نهياً لله تعالى أن يزيغ قلوب المؤمنين بعد أن أبلغهم جادّة الهدى والإيمان، ولكنه دعاء يحمل معنى التوسل والرجاء.

ومثله قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

فــلا تتــركَنّــي بــالــوعيــدِ كــأننــي
إلــى النــاس مَطْلــيٌّ بــهِ القــارُ أجْــرَبُ[٢]

فالشاعر لا يَنهَى الملك عن تركه بدائرة الوعيد والتهديد ليبقى بين الناس طريداً شريداً منبوذاً، كأنه البعير الأجرب، وقد دُهِن بالقار الكريه المنظر والرائحة، ولكنه يدعوه ويتوسل إليه. ولِمَ لا يكونُ أسلوبُه دعاءً أو رجاءً وهو الصغير تُجاه المخاطَب القويّ الكبير؟

(٢) الالتماس

وهو طلب النِّدّ من الندّ، والصديق من الصديق. فقول ابن ربيعة لفتاته:

فــلا تقتلينــي إنْ رأيــتِ صبــابتــي
إليــك؛ فــإنــي لا يحِــلُّ لكــم قَتلــي[٣]

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٨.

(٢) ديوان النّابغة ص ١٣

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٣٣٨.

لا يدخل في باب النهي بمعناه الأصيل، ولا في باب الدعاء، لأن الفتاة الحبيبة ليست أعلى منه ولا أكبر، وإنما هي حبيبةٌ قبل كل شيء، لها ما له، وعليها ما عليه، ولو لم تكن كذلك لم يُحبَّها، ولم يمحضها خالصَ هواه، إذاً فحديثه التماسٌ في حقيقته وغايته.

ومثله خطاب ابن زيدون لولّادة:

لا تحسبوا نأيَكُم عنّا يُغَيِّرُنا إنْ طالما غَيَّر النَّأيُ المحبّينا[1]

(٣) الإرشاد

وهو طلبٌ جاء على صورة النهي ظاهراً، وحَمَل معنى النصيحة والإرشاد باطناً. مثله قول المعري:

ولا تجلِسْ إلى أهل الدنايا فإنّ خلائقَ السفهاء تُعْدي

فهل تظن أن الشاعر ينهى على سبيل الاستعلاء والإلزام؟ أو أنه يعلّم صاحبه حكمة خالدة، ويرشده إلى سلوك مستقيم؟ أوَليس قصد الشاعر رفعَ مستوى صاحبه بين الناس؟ أوليست مجالسة الأدنياء والأسافل، ومخالطتهم ومصاحبتهم تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في سلوك من يخالطونهم ويصاحبونهم؟ إذاً فالعاقلُ من نأى عن هذه البؤرة الفاسدة، وحفظ نفسه وقلبه وعينه وسمعه من أدرانها.

ومثله قول شوقي يخاطب العقلاء:

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم فمصيبة الإسلام من جُهّاله[2]

إنه لا ينهى مستعلياً ولا ملزماً، ولكنه يرشد العقلاء إلى حقيقة،

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ١٦٧

(٢) الشوقيّات ١/ ٧٠ قصيدة «عيد الدّهر وليلة القدْر».

خلاصتها ألا يصغوا لأولئك المشككين في الدين، والعقيدة، والخلق القويم. فالمصيبة التي حلّت بالعالم الإسلامي وهوت به كانت من الإصغاء لهؤلاء الأعداء الفاسدين. أوَليس حديث شوقي نصيحةً وإرشاداً؟

(٤) التمـني

وهو طلبٌ موجّه إلى غير العقلاء. فلو سمعنا الشاعر البهاء زهير يقول:

ويـا ليلـةَ الأنـس لا تَنقَضِـي فـإنّ الحبيـبَ علينـا رَضِـي

أدركنا أنه بأسلوبه الناهي يتمنى من الليل أن يتوقف عن المسير، ليحظى زماناً أطولَ بلقاء حبيبه الذي رضي عنه، ومَنّ بالوصل واللقاء.

(٥) التهـديـد

وهو طلب يحمل في ثناياه معنى الإنذار والوعيد والتخويف، ويكون هذا الأسلوب بمخاطبة الأدنى قَدْراً ومنزلة. كقول أب لولدٍ عاق: لا تقلعْ عن عنادِك، ولا تدرسْ دروسك.

(٦) التحقيـر

وهو أسلوب هجائي، طالما استخدمه الشعراء ليذلوا مهجوّيهم، كقول الحطيئة للزِّبْرقان بن بدر:

دَعِ المكـارمَ، لا تـرحـلْ لبُغْيَتِهـا واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي[1]

وقول شاعر آخر:

لا تطلـب المجـدَ إن المجـد سلَّمُـهُ
صعـبٌ، وعِـشْ مستـريحـاً نـاعـمَ البـالِ

(١) ديوان الحطيئة ص ١٠٨، ودلائل الإعجاز ٢٩٥

(٧) التيئيس

ويكون في حال المخاطب الذي يهمّ بأمر لا يقوى عليه، وليس من أهله مثله قول الشاعر

لا تَعْــرِضَــنَّ لجعفــرٍ متشبّهــاً   بنَـدَى يـديـه فلسـتَ مـن أنـداده

فكأن الشاعر يقول لمخاطبه: إن من المستحيل عليك أن تتشبه بجعفر كرماً وسخاء، فلستَ من أمثاله، ولست قادراً على أن تبلغ آفاقه وآماده.

(٨) النـداء

يقول عنه البلاغيون: إنه طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرفٍ من حروف النداء يحُلُّ الفعل المضارع «أنادي» المنقول من الخبر إلى الإنشـاء محلَّـه. وقـد يحـذف حـرف النـداء إذا فهـم مـن الكـلام. نحـو: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ ﴾(١)

وحروف النداء هي:

أ ـ الهمزة، وأي: وينادى بهما القريب.

ب ـ يا، وأي، وأيا، وهيا، و وا. وينادَى بها البعيد.

وهذه الأدوات قد تستخدَم في حقيقة ما وضعت له من نداء قريب أو بعيد، وحينئذ تكون جارية وفق مقتضى الظاهر.

لكنها ـ كثيراً ـ ما تستعمل على عكس ما وضعت له، فينادَى البعيد بأداة نداء القريب، وينادى القريب بأداة نداء البعيد لاعتبارات يلحظها الأديب البليغ.

قد يريد في خروجه بالأدوات عن معناها الأصلي زيادة في المدح، أو

---

(١) سورة يوسف، الآية ٢٩

مبالغة في الذم، أو إظهارَ عاطفة جامحة. من ذلك مثلاً ذلك الأديب الذي ينادي أحبابه الذين سكنوا في البلد البعيد بأداة «الهمزة» التي هي للقريب، كأنه يتخيلهم قريبين منه، يسمعون نداءه، ويحسّون بنبضات قلبه. فيقول:

أسكّانَ نعمانَ الأراكِ تيقّنوا ... بأنكم في رَبْع قلبيَ سُكّانُ

وقد ينادَى القريبُ الداني، الذي يراه ويسمعه آناء الليل وأطراف النهار بأداة لا ينادَى بها إلا البعيد مثل «يا». إشارةً إلى أن هذا الذي يناديه عالي المرتبة، عظيم الشأن، بينه وبين مناديه عوالم شاسعة، من المستحيل أن يقترب منها، أو يكون فيها، ولذلك فهو يخاطبه على هذه الصورة:

يا مَنْ يُرَجَّى للشدائد كلِّها ... يا مَنْ إليه المشتكَى والمَفْزَع

المرجَّى للشدائد، والذي إليه المشتكى والمفزع هو الله. وهو قريب، بل هو مع الإنسان أنّى كان. ولكن أدب الخطاب دعا الشاعر أن يلتزم حدود الضراعة والأدب والخلق الرفيع، فناداه بتلك الأداة.

* * *

وقد ينادى القريب بأداة البعيد احتقاراً وامتهاناً، أو لكونه شارداً كأنه ـ رغم قربه الجغرافي ـ بعيدٌ عن القلب، والعَيْن، فيقال له:

أيا هذا أتطمعُ في المعالي ... وما يحظى بها إلا الرجال؟

ويقال له إذا كان حاضرَ الذهنِ غائبَ العقل:

أيا من عاش في الدنيا طويلاً ... وأفنى العمر في قِيلٍ وقالِ
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمّع من حرام أو حلالِ
هَبِ الدنيا تُقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذلك للزوالِ؟

* * *

وتخرج حروف النداء عن معناها الأصلي إلى معانٍ أخرى غير النداء، تفهم من سياق الكلام بمعونة قرائن الأحوال.

من هذه المعاني:

(١) التّحسُّـر

وفيه يمتزج النّداء، بمغنى الحسرة والألم. من ذلك قوله تعالى على لسان الكافر الذي وجد صحيفته سوداء من الذّنوب والكفر بالله، وأيقن بالجزاء الرهيب، والنّار المحرقة ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[(١)]

(٢) النّدبة والاستغاثة

وفي النّدبة يغلب استخدام الأداة «وا» مثل: «وا مُعْتَصماه». ومثله نُدْبة المعري حيث رأى المقاييس في الحياة معكوسة فقال:

فـوا عجبـاً كـم يـدّعـي الفضـلَ نـاقِـصٌ
ووا أسفـاً كـم يُظهـرُ النّقـصَ فـاضِـلُ[(٢)]

أمّا الاستغاثة فهي أقلّ وقعاً من النّدبة من حيث المعنى. والأداة «يا» مع اللام المفتوحة هي الوسيلة لذلك: يا لَلرّجال ويا لَلْمُروءات!

(٣) الزَّجـر

وهو قريب من التأنيب والتوبيخ. ويمكن أن يزجر المرء نفسه على غوايتها كما يزجر سواه. نحو: يا فؤادي ألم يَرْدَعْك الشَّيْب وينبّهك داعي الحِمام؟

---

(١) سورة النّبأ، الآية ٤٠

(٢) سِقْط الزّند، ص ١٩٣

(٤) التّعجّب

وفيه يشمّ المرء من أداة النّداء معنى التّعجّب، كقول طَرَفَة بن العَبْد:

يــا لَــكِ مــن قُبَّــرةٍ بِمَعْمَــرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفِري

(٥) التحقير

ومنه نفهم معنى النداء المُشْرَب بالاحتقار. ومثله مناداة علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ أولئك الذين تقاعسوا عن نصرته فقال: «يا أشباه الرجال ولا رجال».

(٦) التّحبّب

لو قرأت الآية الكريمة التي فيها ينادي نوح عليه السلام ابنه ليركب معه في السفينة لشعرت بالحنان والعاطفة والتحبب: ﴿يَـٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾[١]

* *

ويخيّل إلينا أن هذه المعاني المستفادة من أدوات النداء ـ كما بيّنها علماء البلاغة ـ راجعة إلى الأدوات ذاتها إضافة إلى المعنى العام الذي تضمنه الكلام، لا إلى الأدوات وحدها ـ كما قالوا.

دليلنا على ذلك الأداة «يا». فقد استخدمت في صيغ عدة. منها: يا أيها السيف، يا لَلرجال، يا لكِ من قبّرَة، يا ألأم أنوفٍ، يا حبيبي. يا مظلوم، يا للهِ.

لم تتغير الأداة، وإنما تغيّر المعنى بحسب الجملة التي دخلت عليها، وبحسب تركيب هذه الجملة.

إذاً، فليس لنا أن نقول كما قال البلاغيون بأن هذه الأدوات تختلف

---

(١) سورة هود، الآية ٤٢

في معانيها. إنما نقول: إن ظلال معنى الجملة وإيحاءاته تضفي على الأداة شفافية مستمدة من هذا المعنى، فتتلون الأداة، فتوحي بالتّحبّب، أو بالإغراء، أو بالاستغاثة، أو بالتحقير، أو بالتعظيم، أو بسوىٰ ذلك من المعاني.

مثل الأداة كمثل لوح الزجاج الصافي إن وضعته على الجسم الأبيض رأيت بياضاً متصلاً، وإن وضعته على الجسم الأصفر، أو الأحمر، أو الأخضر، أو الأسود أعطاك اللون ذاته، لا تميز الزجاج مما تحته، فكأنهما كلٌّ لا ينفصل، وجزءٌ لا يتجزّأ.

* * *

ملحوظـات لا بدّ منها
فـي
تبادل الخبر والإنشاء

(١) قد يحِلّ الخبر محل الإنشاء

في اللغة العربية صيغٌ شتى، ظاهرها الخبر وحقيقتها الإنشاء. والبلاغيون يَعُدّون هذه الصيغ من صيغ الإنشاء ولا يهتمون بظاهرها

فلو قلت: رحم الله فلاناً، أو وفقك الله وسدَّد خطاك، أو لحا اللهُ ذلك الفاجرَ، أو لا بارك الله في أولئك القوم، أو رزقني الله لقاءك؛ فإن هذه العبارات أخبارٌ في ظاهرها، يمكن أن تعرضها على قانون الصدق والكذب وتقول بعد ذلك: إنها أخبار.

لكنك لو تأملت في حقيقتها لوجدتها أدعيةً صيغت بصيغة الأخبار. وأن أصلها: اللَّهم ارحم فلاناً، لِيوفقْكَ اللهُ ولْيسدِّد خطاك، اللهم الْحُ ذلك الفاجر، رَبِّ لا تبارك في أولئك القوم، اللهم ارزقني لقاء صاحبي. وهكذا.

وملاحظة صغيرة عابرة تدل على أنها صيغُ أمرٍ أو نهي حملت معنى الدعاء، وانتقلت من صورة الإنشاء الطلبي إلى صورة الخبر.

ولهذا فإن البلاغيين يدرجونها في أقسام الإنشاء الطلبي رغم ظاهرها المعاكس.

وللعلماء تعليل لطيف في أسباب قلب الإنشاء إلى الخبر يتلخص في أن الأدب والذوق قد يقودان المتكلم إلى العزوف عن الأمر، ولا سيما أمر الكبير العظيم.

ويقولون: إن قول إنسان لرئيسه أو سيده أو مليكه أو حبيبه: «يسمح لي سيدي بالإنصات» خير من قوله: «اسمح لي يا سيدي بالإنصات لحظات»؛ لأن في العبارة الأخيرة أمراً، وإنْ كان دعاءً أو رجاءً، وفي التعبير الأول أدب ولطف، هما من صفات البليغ المرهف.

(٢) قد يحل الإنشاء محل الخبر

وفي العربية صيغ شتى، ظاهرها الإنشاء وحقيقتها الخبر والبلاغيون يعدّون هذه الصيغ في زمرة الإنشاء.

فلو قرأنا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] أو قوله تعالى: ﴿قَالَ: إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ﴾[2]

لاحظنا في الآية الأولى عطف فعل الأمر «أقيموا» ـ وهو إنشاء طلبي ـ على جملة خبرية «أمر ربي»، وأن معنى الأمر في حقيقته: «وإقامة وجوهكم». وتكون العبارة على الوجه الجديد: «قلْ أمر ربي بالقسط وإقامةِ وجوهكم عند كل مسجد».

أما الآية الثانية فقد بدأت بالصيغة الخبرية «إني أشهدُ الله»، ثم عطف عليها جملة إنشائية طلبية «واشهدوا». ومعناها في الحقيقة «وأشهدُ» وهي صيغة خبرية. وتكون العبارة على الوجه الجديد: «قال إني أشهد الله

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٩

(٢) سورة هود، الآية ٥٤،٥٥.

وأشهدكم أني بريء مما تشركون من دونه».

وتعليل البلاغيين لطيف في هذا الموضوع إذ يقولون: إنه حين أراد أن يُشعر بقيمة الصلاة وأثرها وجليل قدرها في الدين عَدَل عن صيغة الخبر المحتملة للتصديق والتكذيب إلى صيغة الإنشاء الطلبي الذي لا يحتمل شيئاً من هذا القبيل عنايةً بها واهتماماً.

وفي الآية الثانية يقولون: إنه أراد التحاشي والاحتراز من مساواة السابق باللاحق، أي مساواة شهادة المخلوق بشهادة الخالق، فعَدَل عن صيغة الخبر إلى صيغة الإنشاء الطلبي ترفعاً واعتزازاً ـ سبحانه ـ.

المبحث الثالث

المسنَد إليه

المسند إليه: أحد ركني الجملة، فعليةً كانت أم اسمية.

وقد يكون أكثر أهمية، وأكثر قيمة من الركن الثاني «المسنَد».

والسبب في أهميته أنه يمثّل الركن الثابت في الجملة، في حين يمثّل «المسنَد» الركن المتغير فيها.

بتعبير آخر: يمثّل المسنَدُ إليه «الذاتَ»، ويمثل المسندُ «الوصفَ». وكما يقول علماء المنطق: «الذات أقوى في الثبوت من الوصف»؛ ويعللون ذلك بأن الجملة ـ وإن كانت تعتمد على العنصرين معاً ـ تحتاج إلى الدالّ على الثابت أشدّ وأقوى من حاجتها إلى المتحوّل العارض.

ولنضرب على ذلك مثلاً: «المال زينة الحياة».

إن الركن الأول في هذه الجملة «المال»، وهو الذات، أو هو المسند إليه، أو المحكوم عليه.

والركن الثاني هو «زينة الحياة»، وهو الصفة، أو هو المسند، أو المحكوم به.

معنى المثال واضح، لا يحتاج إلى شرح؛ ولكنْ في صحته خلاف. نعم، المال: زينة الحياة في وضع من الأوضاع، ولكنه قد لا يكون زينة

الحياة دائماً. إنه قد يكون سبباً في قتل صاحبه، أو تحطيم سعادته، أو وسيلة لشراء ضمير، أو سبباً في إذلال فرد، أو استعباد أمة؛ أو أداةً مُعِينةً على الفساد والحرام.

المالُ هو هو لم يتغير جوهره، ولكن ما يؤدي إليه هو المتغيّر حسب الظروف، وحسب اليد التي تملك المال.

إذن: «المال»: هو الثابت، و«زينة الحياة» هي الصفة المتغيرة.

* * *

هذا العمود الفقريّ للجملة، أو هذا الركن الأصيل لا يكون في الكلام على صورة واحدة، كما جاء في المثل الذي ضربنا، وإنما يأتي على صور شتى.

قد يكون محذوفاً، وقد يكون مذكوراً.

وهذا المذكور قد يكون نكرة، وقد يكون معرفة.

قد يكون متقدماً، وقد يكون متأخراً.

لكلٍّ من هذه الصور مكان، لا يقوم غيرها مقامها. والبليغ الحق هو الذي يعرف هذه المقامات، ويضع كل شيء في موطنه المناسب. وتلك هي البلاغة في حقيقتها. أوَليست البلاغة معرفةَ مقتضى الحال؟

* * *

بيد قارئنا الكريم نأخذ، لنطوي رحلة المقامات، ونقف على بعض أسرارها، أو جواهرها؛ لعلنا نصل في نهاية المطاف إلى تعرف سرّ «التعبير الفنّي» الذي هو عنصر من عناصر «الإعجاز».

* * *

ولتسهيل الفهم على القارىء نذكر له مواقع كلٍّ من المسنَد إليه

والمسنَد في الجملة، على وجه العموم، فإذا ما زاد فيها شيء على ما ذكرنا فهو القيد.

أما مواقع المسنَد إليه في الجملة فتكون في:

١ ـ الفاعل نحو: انتصر العربُ، وصل الحسَنُ **خلقُه**

٢ ـ نائب الفاعل نحو: هُزِمَ **الخصمُ**.

٣ ـ المبتدأ الذي له خبر نحو: **السماءُ** صافيةٌ.

٤ ـ مرفوع المبتدأ المشتق نحو: أ ـ أقائم **أنت**؟

ب ـ ما مجحودٌ **فضلُك**.

٥ ـ ما كان أصله مبتدأ نحو: أ ـ كان **الجوُّ** معتدلاً

ب ـ إن **الحرارةَ** منخفضةٌ.

٦ ـ المفعول الأول للأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر نحو: ظننت **الأمرَ** سهلاً.

٧ ـ المفعول الثاني للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل نحو: أنبأت المقصّرَ **العاقبةَ** وخيمةً.

أما مواطن المسنَد في الجملة فهي:

١ ـ الفعل التام نحو: **قدم** الحبيب.

٢ ـ اسم الفعل نحو: **شتّان** ما بين الفريقين.

٣ ـ خبر المبتدأ نحو: الحياة **كفاحٌ**.

٤ ـ المبتدأ الذي ليس له خبر نحو: **أقائم** أنت بواجبك؟

٥ ـ ما كان أصله خبراً نحو: أ ـ كان المتنبي **فارساً**.

ب ـ إن سيف الدولة **بطلٌ**.

٦ ـ المفعول الثاني للأفعال التي تنصب مفعولين

أصلهما مبتدأ وخبر نحو: وجدت الوفاءَ **نادراً**.

٧ ـ المفعـول الثـالـث لـلأفعـال

التي تنصب ثلاثة مفاعيل نحو: أعلمتُ المجدَّ الفوزَ **محقّقاً**.

٨ ـ المصدر النائب عن فعل الأمر نحو: **فصبراً** في مجال الموت.

* *

حذف المسند إليه

للشيخ **عبد القاهر الجرجاني** كلمة رائعة عن الحذف بصورة عامة، أوردها في كتابه: «**دلائل الإعجاز**»، قال فيها: «إنه باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنك ترى به تَرْكَ الذِّكْر أفصح من الذِّكر، والصمت عن الإفادة أَزْيَد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطقْ، وأتَمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبنْ. . »[1]

والبلغاء من الناس يميلون إلى أسلوب الحذف والإيجاز أكثر مما يميلون إلى أسلوب الذِّكر والإسهاب؛ لأنّهم يرون الأول عنواناً للبلاغة، ومقياساً للذكاء، وقدرة فائقة على التعبير البديع.

الرجل البليغ يختار الإيجاز إذا أمكنه التعبير عن فكرته بألفاظ قليلة، ويفضله على الإطناب إذا لم يكن فيه زيادة معنى أو توضيح. ويرى في هذا الإيجاز سموًّا ببيانه، وسمواً كذلك بمن يخاطبه أو يتحدث إليه.

والقاعدة الذهبية التي يتبناها أرباب الذوق هي تفضيل القليل من الكلام على كثيره، إذا كان كلٌّ منهما يحمل المعنى نفسه.

ويشترطون في المحذوفات جميعاً ـ على اختلاف ضروبها ـ أن يكون في الكلام ما يدلّ عليها، وإلاّ كان الحذفُ تعميةً وإلغازاً لا يصار إليه بحال.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٢

إن القـرينـة شـرطٌ فـي صحـة الحـذف، إذا اقتـرن بهـا غـرضٌ مـن الأغراض.

* * *

ويعدد العلماء عدداً من الأغراض فيها يحذف المسند إليه، منها:

١ ـ الابتعاد عن فضول الكلام

لقد عبّر علماء البلاغة قديماً عن هذه القاعدة بكلمة: «**الاحتراز عن العَبَث**». وكانوا يقصدون إلى أنه يجب أن يحذف من الكلام كل ما كان نافلاً، أو ما دلت عليه العبارة وإن كان محذوفاً.

أ ـ فلو سألك سائل: كيف صحتك؟ فأجبت: «جيدة»، فإنك تعني دون شك: «صحتي» جيدة. ولقد حذفتَ كلمة «صحتي» لأنها مفهومة من سياق السؤال، وأدركتَ أن ذكرها عَبَث لا فائدة منه.

ب ـ ولو قرأتَ قول الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾[1] عرفتَ أن تقدير الكلام: مَنْ عمل صالحاً «فعَمَلُه» لنفسه، ومَنْ أساء «فإساءتُه» عليها؛ لأن الكلمتين المحذوفَتيْن مفهومتان من سياق الجملة.

ج ـ ولو سمعت الشاعر وهو يسائل الفتاة الصبية الباكية بحرقة وحرارة:

لِـمَ تبكيـنَ؟ مَـنْ فَقَـدْتِ؟ فقـالـت والأسـى غـالـبٌ عليهـا: حبيبـي

قَدَّرتَ على الفور أن الصبية تقول: إن الفقيد حبيبي.

(١) سورة فُصِّلَتْ، الآية ٤٦.

من هذه الأمثلة وأشباهها استنتج العلماء أن المسند إليه يحذف إذا صحَّ الاستغناء عنه، وكان ذكره عَبَثاً في الجملة؛ ثم قالوا بناءً على هذا:

١ ـ يحذف المسند إليه إذا وقع جواباً لاستفهام.

٢ ـ ويحذف بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط.

٣ ـ ويحذف بعد فعل «القول».

٢ ـ ضيق المقام عن إطالة الكلام

ويكون ذلك في حالة التحدث إلى مريض لا يستطيع التفصيل والإطالة، أو في حالة الخوف من فوات فرصة، أو التنبيه على خطر داهم.

تصور أنكَ كنتَ في خطّ النار تقبع مع رفاق السلاح في الخنادق، وأمامكم الصواريخُ الصيادة لطائرات العدو، وكان أحد الرفاق غافلاً يتلهى، ولمحتَ في الوقت ذاته طيارةَ عدوٍّ من بعيد قادمة. في هذه الحال ليس أمامك مجال لتنبيهه بإطالة الكلام، فتقول له: طيارة. وهو يفهم بسرعة: «تلك» طيارة. وتكون بليغاً في تنبيهك حيث حذفت المسند إليه.

وعلى مثل هذا الموطن يقاسُ الكلام في رؤية سيارة مسرعة تكاد تدهس أحد الناس، أو رؤية غريق، أو حريق، أو ما شابه.

٣ ـ تيسير الإنكار عند الحاجة

هذا بابٌ شديد اللزوم في أيام المِحَن والخطوب والدسائس والجواسيس والمخبرين، ولا سيما إذا كانوا وراء كل باب، وخلف كل متحدث، وفي كل ركن وزاوية. فقد تكون مع صديق تأمنُه وتثق به، وتريد أن تحدثه عن إنسان ما، وتخشى في الوقت ذاته الأذَى والضرر فتقول له: نَهَبَ الناسَ، وهَتَكَ الأعراضَ، وفعلَ كذا وكذا، دون أن تذكر اسمه، وصديقك يفهم أن الذي تعنيه: فلان.

حَذف المسند إليه في هذا الموطن يتيح لصاحب القول الإنكار إذا دعت الحاجة، وإذا جُوبِهَ بقوله هذا فإن خصمه لا يستطيع إثبات المحذوف، لأن المتَّهَم قد ينكر أنه كان يقصد فلاناً من الناس.

٤ ـ اتباع الاستعمال الوارد عن العرب

تقول العرب: رَميَةٌ من غيرِ رامٍ، وهم يقصدون: «هذه» رميةٌ من غير رام.

وتقول: نِعمَ الرفيقُ سعيدٌ، وهم يقصدون نِعمَ الرفيقُ «هو» سعيد[١]

وتقول: أعوذ بالله من الشيطانِ الرجيمُ (بضم الميم) قاصداً إنشاء الذم، وتقدير الكلام على هذا الوجه أعوذ بالله من الشيطان «هو» الرجيمُ.

وتقول: الحمد لله أهلُ الحمد (بضم لام أهلُ) قاصداً إنشاء المدح. وتقدير الكلام على هذا الوجه: الحمد لله «هو» أهلُ الحمد. وهكذا

٥ ـ المحافظة على الوزن الموسيقي

تقول: مَن طابت سريرَتُه حُمِدَت سيرَتُه. وأصل الكلام: مَن طابت سريرته حَمِدَ الناسُ سيرَته.

والفرق بين العبارتين أن الأولى تَمّ فيها السجعُ والنَّغَم الموسيقي بين (سريرتُه وسيرتُه) وأن الثانية نقص فيها النغم الموسيقي كثيراً لضم التاء في (سريرتُه) وفتحها في (سيرتَه).

وحفاظاً على اكتمال النَّغَم فضّل المتحدث بهذه العبارة حذف المسند إليه الأصلي الذي قُدِّر بـ«الناس»، واستعاض عنه ببديل هو نائب الفاعل المتمثل في «سيرتُه»

---

(١) هذا على مذهب من يعربون (سعيد) خبراً لمبتدأ محذوف.

وقد يقول قائل: إن كلمة «الناس»: مسند إليه، وكذلك «سيرتُه»: نائب فاعل في المثال الأصيل فهي مسند إليه. ولكنا نقول: إن كلمة «سيرتُه» أصلها مفعول به، أو قَيْد، وإعرابها بلاغياً بالمسند إليه لا يقوم مقام المسند إليه الأصيل المحذوف. ولهذا فقد رجَّحنا القول بإن المسند إليه (الأصيل) محذوف بسبب الحِفاظ على السجع والنغم الموسيقي.

ومثله في الشعر قول الشاعر:

ومــا المــال والأهلــون إلاّ ودائــعٌ ولا بدّ يوماً أن تردَّ الودائعُ[1]

٦ ـ تَعَيُّنُ المحذوف وظهوره

لو سمعت قائلاً يقول: «خالقُ الخَلْق». إذاً لَفَهِمتَ رأساً بدون أدنى شك أنه هو الله وحده، وأن أصل القول: «الله» خالق الخلق. ولما كان «الله» وحده هو المتفرد بالخلق أمكن الاستغناء عن ذكره لتعيُّنه وظهوره.

٧ ـ عدم الفائدة من ذكره

وعدم الفائدة تتأتى من الجهل به، أو عدم تعلق أي غرض من الأغراض البلاغية في ذكره. فلو قيل لك «سُرِقَ بيتي» فهمت أن القائل يجهل الفاعل، وأنه لم يزدك معرفة لو قال لك: سرق «سارق» بيتي. لأنك لا تعرف ذاتَ السارق، ولا فائدة زائدة في الكلام لو ذكر المسند إليه.

* * *

وبعد، فهناك مقاصد أخرى يحذف فيها المسند إليه، كالخوف منه، أو الخوف عليه، أو تعظيمه فلا يذكر اسمه على كل لسان، أو تحقيره

---

(١) البيت للشاعر لبيد بن ربيعة العامري ٢/ ٢٤٤ أشعار الشعراء الستة الجاهليّين. ط دار الآفاق ـ بيروت.

فيصان اللسان عن التلفظ بذكره أو باسمه، أو الرغبة في إبهامه وغير ذلك.

القاعدة الأساسية في هذا الموضوع هي تقصّي السبب الفني لعدم ذكره، وإظهار القيمة الجمالية لهذا الحذف وفضله على الذكر.

* * *

ذِكر المسند إليه

كل لفظ في الكلام يدلّ على معنى خليقٍ بالذِّكر، لتأدية المعنى المراد به، ولهذا يذكر المسند إليه وجوباً إذا كان ذكره ضرورياً، ولا مقتضى لحذفه لعدم وجود قرينة تدل عليه عند حذفه، وإذا حذف ـ على هذه الحال ـ كان الكلام مُعَمًّى مبهَماً لا يُستبان منه المراد.

وقد يترجح الذكر مع وجود قرينة تمكّن من الحذف، حين لا يكون منه مانع، ومن مرجحات الذكر:

١ ـ قلة الثقة بالقرينة

هذه الثقة الضعيفة سببُها ضعفُ القرينة أو ضعف فهم السامع كقولك: «الإحسان يستعبد الإنسان» فذكر المسند إليه «الإحسان» في هذه العبارة واجب، لضعف الدلالة على الذي «يستعبد الإنسان» إذ قد يفهم السامع في حال الحذف أن المحذوف هو «المال» أو أنه «الجاه» أو «المرأة» أو «الاستعمار» أو «الفقر» أو غير ذلك، وكل منها صحيح في حد ذاته، والقرينة لا تفصح أ ا نريده هنا هو «الإحسان». ولذلك وجب ذكره.

٢ ـ التسجيل والإقر

قد يكون هنا متَّهَم أمام قاضٍ يحاكمه، فيسأله القاضي أسئلةً شتى، ويستطيع في النهاية أن ينتزع منه اعترافاً صريحاً. ويسجل القاضي اعترافه الصريح، فيذكر قول متهم ـ مثلاً ـ: «نعم زيدٌ هذا أقرَضَني ألف دينار».

هذا الذكر للمسند إليه «زيد» واجب الذكر في هذا الموطن، لئلا يبقى في كلام المتهم أي شك في اعترافه، ولئلا يستطيع أن ينكر فيما بعد فيقول: ما قصدتُ في اعترافي «زيداً»، وإنما كنت أقصد إنساناً آخر، وبهذا التسجيل انتفى الشك، وتأكد الإقرار.

٣ ـ التلذذ بذكره

كثير من المحبين يتلذذون بذكر اسم من يحبّون. ولا فرق بين حب للخالق ـ جلّ جلاله، أوِ لرسول الإنسانية ﷺ أو لمخلوق من البشر، فللناس فيما يعشقون مذاهب.

تَمَثَّلَ أحمد شوقي في مسرحيته الشعرية «مجنون ليلى» قيسَ بن الملوّح العامري، وهو يتغنى بليلى بعد أن طرق سمعَه اسمُها في إحدى غيبوباته فقال:

ليلَى! مُنادٍ دعاء ليلى فخَفَّ له ... نَشْوانُ في جَنَبات الصدرِ عِربيدُ
ليلى! نداءٌ بليلى رَنَّ في أذُني ... سِحرٌ لَعَمري له في النفس ترديد
هل المنادون أهلوها وإخوتُها ... أم المنادون عشاقٌ مَعاميد؟
إن يَشرَكونيَ في ليلى فلا رجَعَتْ ... جبالُ نجدٍ لهم صوتاً ولا البيد
ليلى! لعلّيَ مجنونٌ يُخَيَّل لي ... لا الحيُّ نادَوْا على ليلى ولا نودوا

لقد ذكر في هذه الأبيات الخمسة وحدها اسم «ليلى» سبع مرات. ولا شك أنّ تلذذه بذكر اسمها هو الدافع إلى تكراره ليس إلاّ

ومثله قول الموحد: اللهُ ربي، اللهُ حسبي. والمثل يقول: مَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذِكرِه.

٤ ـ التعظيم أو التحقير

قد يسألك صديق: مَن عندك اليومَ؟ فتجيبه مزهُوّاً بزائرك العظيم:

سَيِّد البلاد ضيفي الليلة. أو تقول له ووجهك عابس: أحد اللؤماء سوف يزورني الليلة.

* * *

وهناك أغراض أخرى ذكرها البلاغيون منها: زيادة التقرير والإيضاح، والردّ على المخاطب، والتعريض بغباوة السامع، والتقدير والإجلال، والتهويل، وإفادة الثبوت المطلَق، وبسط الكلام في الموطن المحبوب، وسواها.

الذي يعنينا من هذا الباب كله هو أن الذكر إذا كان أبلغ، وفيه فائدة ورجحان على الحذف وَجَب. واللبيب هو الذي يقدّر كل شيء قَدْره، فيحذف في المواطن التي يحسن فيها الحذف، ويذكر في المواطن التي يحسن فيها الذكر

* * *

تعريف المسنَد إليه

الأصل في المسنَد إليه أن يكون معرفة، لأنه المحكوم عليه، أو لأنه العنصر الثابت. ولا بد للثابت أن يكون معلوماً معروفاً، ليكون المعنى واضحاً، والحكم عليه بيّناً.

والتعريف يكون على وجوه شتّى ـ كما في النحو ـ إذ يكون بالإضمار، وبالعَلَمِيَّة، وبالموصولية، وبالإشارة، وبلام التعريف، وبالإضافة. ولكل من هذه الوجوه أغراض، ينبغي أن نقف عليها.

* * *

أ ـ تعريف المسند إليه بالإضمار

الأصل في الضمير أن يكون دالاً على متكلم، أو مخاطَب، أو

غائب. في حال الإفراد أو التثنية أو الجمع.

ففي مقام التكلم:

أنا ما عَتَبتُ على الصِّحاب   فليس في الدنيا صِحابُ
أنا كالمسافر لاح لي   أيكٌ وأغرتني قباب
أنا لا أرجّي غير جبّا   رِ السماء ولا أهاب

وفي مقام الخطاب:

وإذا سألتَ عن الذنو   ب فإن أدمعيَ الجواب
أنتَ المرجَّى لا تُنا   خ بغير ساحتك الرِّكاب
أنت الُّلبانةُ في الجوا   نح لا النَّوار ولا الربابُ[1]

وفي مقام الغيبة:

خُلِقَ الشاعرُ والبؤسُ معاً   فهما خلّان لم يفترقا
قد سرى في الكون حتى لم يدع   في قلوب الناس قلباً مُغلَقا
هو حزنٌ هادىءٌ في غبطةٍ   وهُو لو ذقتَ نعيمٌ في شقا[2]

ويبدو لنا أن ليس في هذه الضمائر كبير بلاغة، لأن أسلوب العربية ونهج كلامها يتطلبان هذه الضمائر.

إنما البلاغة في ضمير المخاطب. فهو إذا كان أصلاً لرجل أو امرأة مخاطَبَين معيّنَين، فإنه قد يستعمل كذلك الاستعمال ذاته، دون أن يُقصَد به مخاطبٌ معيّن. إذ يصح أن يقصد به كل إنسان، في كل زمان، وكل مكان. مَثَل ذلك مطلع قصيدة المتنبي التي أنشدها كافوراً عند أوّل لقاء. وكان قبله يتقطع ألماً على فراق سيف الدولة:

---

(١) أبيات المقطعين الأول والثاني من ديوان بدوي الجبل ص ٧٢

(٢) ديوان بدوي الجبل ص ٤٣٩.

كفى بكَ داءً أن ترى الموت شافياً وحسْبُ المنايا أن يكنّ أمانيا
تمنَّيْتَهـا لمّـا تمنَّيـتَ أن تـرى صديقاً، فأعيا، أو عدواً مداجيا
إذا كنـتَ تـرضـى أن تعيشَ بـذلّـةٍ فـلا تَستَعِـدَّنَّ الحسـامَ اليمـانيـا
ولا تستطيلَـنَّ الـرمـاحَ لغـارة ولا تستجيـدَنَّ العتـاقَ المـذاكيـا
وأعلـمُ أن البيـن يشكيـك بعـده فلست فؤادي، إن رأيتك شاكيا[1]

لقد كان المتنبي يخاطب في الأصل ممدوحاً اسمه كافور، لكن كلامه، بما احتوى من آهات وآلام، وحِكَم وعنف، يصحّ في زماننا هذا، وبعد زماننا، ويصحّ معنا كما يصحّ مع سوانا، ويصحّ في بلادنا وفي بلاد غيرنا.

انتقل ضمير المخاطب من معيَّن مقصود إلى غير معيَّن وهذا سرّ الضمير وبلاغته.

* * *

ب ـ تعريف المسند إليه بالعَلَميّـة

يؤتى بالمسند إليه علماً لغايات عدة. منها:

١ ـ لاستحضاره في ذهن السامع لتمييزه من غيره
تقول: فتح **صلاح الدين** بيت المقدس.

٢ ـ لتعظيم المسندِ إليه أو إهانته كما في الألقاب
تقول: كتب **حجة الإسلام الغزاليُّ** عدداً من المؤلفات. وقف **أبو جهل** في وجه دعوة الحق.

٣ ـ للتلذذ بذكره

---

(١) ديوان المتنبي ص ٤٤١.

ولا يكون تكرار العَلَم إلا إذا حمَل في طَيّاته أثراً لأمرٍ محبوب. هذا المحبوب قد يكون بلداً، وقد يكون ولداً، وقد يكون حبيباً، وقد يكون مالاً، أو أمراً يعلق به الفؤاد.

إن النفس مولعة بذكر من تهوى، وما تهوى. وما تكرار العاشقين أسماء محبوباتهم إلا من هذا القبيل.

وفي الشعر العربي كثير من هذه الشواهد، فهذا شاعر ارتحل عن نجد، فحنَّ إليه، فإذا هو يتغنى باسم بلده في كل بيت، وذاك رجل كتب لولده رسالة، فراح يذكر اسم الولد في كل سطر، وكل نداء، وفي مطلع كل جملة وفِقرة.

ويقرر علماء النفس، ومعهم علماء الذوق أن الإنسان مولَعٌ بتكرار ذكر من يحب. وتلك طبيعة إنسانية، لا يمكن أن يتحكم بها مخلوق.

٤ ـ للتبرك بذكره

والتبرك مشتق من البَرَكة، وفيه أثَارَةٌ من عنصر دينيّ، ودلالة على روح من التقوى والإيمان.

فالمؤمن الذي يسبّح ربَّه آناءَ الليل وأطراف النهار، إنما يفعل ذلك تعَبُّداً، وتَبَرُّكاً، وطَلَباً للمثوبة ورضى الله. وكذلك يرجو الذين يذكرون محمداً ـ ﷺ ـ ويُصَلّون عليه، قياماً وقعوداً، صبحاً ومساءً.

لقد كان يكفي أن يقول أحدهم: «الله ربّي ألف مرة، أو مائة ألف مرة، أو مليون مرة» ثم يسكت، دون أن يعيد الجملة بذاتها ألف مرة، أو مليون مرة.

لكن الرغبة في التبرك، والاندفاع في التعبد هو الذي يقوده إلى هذا التكرار الحبيب، والذّكر الدّائم.

وهنا نحب أن نقف وقفة قصيرة نعلن فيها مخالفتنا لعلماء البلاغة الذين فَصَلوا بين التلذذ والتبرك، وجعلوا كلاًّ منهما عنصراً مستقلاً منفصلاً عن العنصر الآخر

نعتقد أن في التبرك عنصراً من التلذذ، وليس العكس.

وأكبر دليل على ذلك تلك الأقوال والأفعال التي تملأ بطون الكتب. فكم من المؤمنين الذي يَرَون في العبادة وذِكر الله لَذّاتٍ لا تَعدِلُها أكبرُ لذات الحياة! وكم حدّثونا عن عمليات جراحية أُجرِيَت لرجالٍ كانوا مستغرقين في صلواتهم وخشوعهم وأذكارهم!

ولا نحب أن يتصور قارئنا أن الذكر ينحصر في اسم الله، جلَّ وعلا، وحده، أو في الصلاة على نبيِّه الكريم، ﷺ، بالذكر الصريح. فهناك من المؤمنين من يُكَنُّون ويَرمزون. ذلك أنهم قد يذكرون اسم «ليلى» أو «هند» أو «عفراء» وهم يقصدون من ورائها الحبيب الأعظم.

لنقرأ أبيات سلطان العاشقين ابن الفارض، وحينئذٍ نتأكد أن «ليلى» ليست في حقيقتها بشراً من لحم ودم، وإنما هي رمز للحبِّ والمحبوب. وما تكرار ذكرها إلا عبادة ولذَّة في آنٍ واحدٍ.

أَبَرقٌ بدا من جانب الغَورِ لامعُ ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقعُ
يقول نساءُ الحيِّ: أين ديارُه؟ ... فقلت: ديارُ العاشقين بَلاقعُ
فإن لم يكن لي في حماهنّ موضعٌ ... فَلِي في حمى ليلى بليلى مواضِعُ
ولي عندها ذنبٌ برؤية غيرها ... فهل لي إلى ليلى المليحةِ شافعُ
فيا آل ليلى! ضيفُكم ونَزيلُكم ... بحيِّكُمُ يا أكرمَ العُربِ، ضارعُ
قِراهُ جَمالٌ، لا جِمالٌ، وإنّه ... برؤية ليلى مُنيةِ القلب قانعُ
إذا ما بَدَت ليلى، فكلّيَ أعينٌ ... وإن هي ناجَتني فكلّي مَسامعُ

لعلّـــيَ مـــن ليلـــى أفـــوزُ بنظـــرةٍ لها في فؤاد المستهام مواقعُ[1]

٥ ـ للتفاؤل أو للتشاؤم

هذا التفاؤل أو التشاؤم يكون من إيحاءات اسم العَلَم ذاته. فمن كان اسمه «سروراً» فليس وقعه على الأذن كمن اسمه «حرب». إذ الأول يوحي ـ في رأي بعض الناس ـ بالتفاؤل، ويوحي الثاني بالتشاؤم.

* * *

ج ـ تعريف المسنَد إليه بالإشارة

يؤتى بالمسند إليه اسم إشارة لغايات. منها:

١ ـ **لتمييز المسند إليه أكمل تمييز** نحو: هذا بَعْلي.

٢ ـ **للتعريض بغباوة المخاطب** نحو: أولئك آبائي، فجئني بمثلهم.

٣ ـ **بيان موقعه، في القرب، أو التوسط، أو البعد** نحو: هذا أخي. ذاك صديق. ذلك ابن عمي.

٤ ـ تعظيمه بالقرب، أو تعظيمه بالبعد

لقــد طــاب لــي فيــك هــذا الغـرا م وإنْ صــحّ لــي أنــه متلفــي[2]
أأحبــابنـا هــل ذلـك العيـش راجـعٌ كما كان إذْ أنتم ونحن جميع[3]

٥ ـ تحقيره بالقرب، أو تحقيره بالبعد

يــــا هـــــذه لا تغلطــــي واللـه مـا لـي فيـكِ خـاطـرْ
خـــدعـــوكِ بـــالقـــولِ المحـــا ل فصـــحّ أنـــكِ أمّ عـــامـــرْ

---

(١) ديوان ابن الفارض ص ١٥١
(٢) ديوان البهاء زهير ص ١٦٤
(٣) المصدر السابق ص ١٥٤

أظننـــتِ لـــي قلبـــاً علـــى		تلـك الحمـاقـة منـك صـابـرْ؟[1]

الخلاصة، اسم الإشارة يستوحي ظلالاً من سياق الكلام، فيتلوّن بلونه. ويكون للتعظيم أو للتحقير، مع أنه في حقيقته واحد.

* * *

د ـ تعريف المسنَد إليه بالموصولية

قبل توضيح أغراض المسند إليه المعرَّف بالموصولية نشير إلى أن علماء البلاغة جعلوا اسم الموصول وصلته كلمة واحدة، وعدّوهما جزءاً لا يتجزأ، على خلاف علماء النحو الذين عدّوا الاسم الموصول جزءاً، وصلته جزءاً آخر

قال علماء البلاغة.

يُعرَّف المسند إليه بالاسم الموصول لأغراض عدة. منها:

١ ـ ألاّ يعلم المتكلم أو المخاطب شيئاً عن المسند إليه إلا ما جاء في صلة الموصول نحو: جاء الذي كان عندك أمس. فالمتكلم لا يعرف عن الذي جاء إلا شيئاً واحداً هو (كان عندك أمس) والذي نسميه: صلة الموصول.

٢ ـ استهجان التصريح بذكر المسند إليه. يقول الفقهاء: الذي يخرج من أحد السبيلَين ناقضٌ الوضوءَ. ويقصد بالسبيلَين القُبُل والدُّبُر. فالأدب يقضي ألاّ يذكر ما يخرج من أحد السبيلين، فاستعيض عنه بالاسم الموصول وهو (الذي).

٣ ـ التفخيم والتهويل نحو: فغشيهم من اليَمِّ ما غشيهم. أي: غشيهم من البحر شيء عظيم.

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨

٤ ـ تشويق المخاطب إلى معرفة الخبر نحو:

والـــذي حـــارتِ البـــريـــة فيـــه ... حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد[(١)]

* * *

هـ ـ تعريف المسنَد إليه باللام

قبل الحديث المفصّل عن هذا القسم نحبّ أن نوضح أن بعض البلاغيين يذكرون بدلاً من كلمة (تعريف المسند إليه باللام) تعريف المسند إليه بأل. والنتيجة واحدة.

يؤتى بالمسند إليه معرّفاً باللام للأغراض التالية:

١ ـ ليدلّ على معهود خارجي.

٢ ـ ليدلّ على الحقيقة.

وتفصيل ذلك:

١ ـ لام العهد الخارجي: وهي ثلاثة أقسام:

أ ـ لام العهد الصريحي

وهي التي يتقدمها اسم نكرة مذكور صراحة. نحو: صنعت مع رجل جميلاً، فلم يحفظ **الرجلُ** الجميلَ. ونلاحظ أن (الرجل) معرَّف باللام. وهو يشير إلى (رجلٍ) المذكور صراحةً من قبل.

ب ـ لام العهد الكنائي

وهي التي يتقدمها ذِكر كنائيّ غير صريح. ولتوضيح ذلك نضرب هذا المثل من قوله تعالى على لسان امرأة عمران:

---

(١) من مرثية أبي العلاء المعرّي لصديقه أبي حمزة الفقيه ومطلعها: «غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي».

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[1]

لقد تقدّم كلمة (الذَّكَر) موطن الشاهد الاسم الموصول (ما) وهو لا يشير صراحة إلى ذكر ولا إلى أنثى، وإنّما هو عام. وتعريف (الذكر) إشارة إلى معهود ذُكِرَ من قبل، ولكنه ذُكِرَ بشكلٍ كنائي غير صريح.

ج ـ لام العهد العِلْمي

وهذه اللام تطلق على شيء حاضر كأن تقول في شأن خطيب يخطب: لقد أبدع الخطيب في كلامه.

أو تطلق على شيء غائب، ولكن المخاطب يعرفه كأن تقول لزميلك في الكليّة: هل الكليّة اليوم مُعَطّلة؟

٢ ـ لام الحقيقة

وهي ثلاثة أقسام:

أ ـ لام الحقيقة والماهية

نحو: أهلك الناسَ الدينارُ والدرهمُ. فاللام الداخلة على الدينار والدرهم تدل على حقيقة الدينار وماهيته. ونحو: «الرجل أقوى من المرأة». فلامُ الرجلِ تدل على حقيقة الرجل.

ب ـ لام العهد الذهني (أو لام الجنس)

وهي التي تدخل على فرد مُبْهَم من أفراد الحقيقة إذا قامت القرينة

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان ٣٥ و٣٦.

على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[1]

عُرِّف المسند إليه باللام للإشارة بها إلى فرد غير معيّن من أفراد حقيقة الذئب. إذ ليس المراد ذئباً معروفاً في الخارج، وإنّما المرادُ فردٌ من أفراد الذئاب.

ومثله قول الشاعر:

ولقد أمرّ على اللئيم يَسُبُّني   فمضيتُ ثَمَّتَ قلت: لا يعنيني

ج ـ لام الاستغراق

وهي التي يراد بها جميع أفراد الحقيقة كقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[2] فالمقصود جميع الناس. ونحو: قرر **التجار** الإضرابَ. فالمقصود كلّ التجار.

* * *

و ـ تعريف المسنَد إليه بالإضافة

نود أن نشير قبل تفصيل هذا الموضوع إلى أن علماء البلاغة عدّوا المضاف والمضاف إليه كلمة واحدة، أو كُلاًّ لا ينفصل، كما سبق وعدّوا اسم الموصول وصلته شيئاً واحداً.

ويخيّل إلينا أن قولهم: يُعَرّف المسند إليه بالإضافة لأغراض منها:

١ ـ لإفادة الاختصار: نحو: كتابي جديد. أصلها «الكتاب الذي هو لي» جديد. وقد قامت الإضافة مقام التطويل.

(١) سورة يوسف، الآية ١٣
(٢) سورة العصر، الآية ٢

٢ ـ لتعظيم المضاف، أو لتعظيم المضاف إليه. نحو: صديق الملك زارني. سائقي حضر.

٣ ـ لتحقير المضاف، أو المضاف إليه. نحو: كولد السارق قادم. رفيق الكسلان مسافر.

نقول: إن في هذه الاعتبارات فوائد قليلة، لا نظن أن الإضافة هي التي جاءت بها، وإنما معاني المفردات، وأسلوب العربية هما الأصل وحَمَلة هذه الفوائد.

* * *

تنكير المسنَد إليه

ينكَّر المسند إليه لأغراض. منها:

١ ـ الإفراد	تقول:	جاءني رجلٌ. أي رجل واحد لا رجلان
٢ ـ الجنس	تقول:	في بيتنا رجل، أي لا امرأة
٣ ـ التكثير	يقول الشاعر:	

فيوماً بخيلٍ تطرد الرومَ عنهمُ ... ويوماً بجود تطرد الفقرَ والجدبا[1]

٤ ـ التعظيم	نحو:	لفلان قصر في الجنة
٥ ـ التحقير	نحو:	ولي ثوبٌ تراه مرقَّعاً
٦ ـ التقليل	نحو:	أصابنا في سفرنا مطرٌ

وفي هذا المقام نود الإشارة إلى ملاحظتين: الأولى تتصل بالتفريق بين إرادة الإفراد وإرادة الجنس. فلو قلت: أرجلٌ عندك؟ فإن الجواب: عندي رجل لا امرأة. والسؤال مطروح لإرادة الجنس. أما إذا قلت: جاءني

(١) ديوان المتنبّي ص ٣٢٥. ومطلع القصيدة: «فَدَيْناك من رَبْع وَإن زِدْتَنا كَرْبا».

رجلٌ. فإنه يفهم أن الذي جاءك رجل واحد لا رجلان. والتنكير مقصود به إرادة الإفراد.

الملاحظة الثانية هي سهولة الانتقال من التكثير إلى التعظيم، ومن التعظيم إلى التكثير. وسهولة الانتقال ـ كذلك ـ من التقليل إلى التحقير، ومن التحقير إلى التقليل.

فلو قرأت الآية القرآنية التي يخاطب فيها الله جلَّ جلاله محمداً ﷺ مشجعاً ومقوياً ومثبتاً: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[1] فقد تعني كملة «رسلٌ» الكثرة كما تعني التعظيم والتفخيم معاً.

قال عدد من علماء البلاغة عن الآية القرآنية الكريمة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2] إن كلمة «رضوان» يراد بها التعظيم، وعلّلوا ذلك بقولهم: أي لهم رضوان من الله عظيمٌ أكبر من كل ذلك زيادة على تلك النعم؛ والمناسب لمقام الامتنان بنعم الوعد أن يكون مثل هذا التنكير للتعظيم لا للتحقير[3]

إن ما ذهب إليه هذا الفريق من العلماء فيه ذوقٌ، وطاعةٌ، وإيمان كبير؛ وصدق في التعامل مع الآيات القرآنية ومقاصدها.

لكنّ لنا اجتهاداً آخر، يقوم على أن المراد من تنكير كلمة «رضوان» هو التقليل، ولا نقول التحقير. ودليلنا على ذلك ما يلي:

---

(١) سورة فاطر، الآية ٤.

(٢) سورة التوبة، الآية ٧٢

(٣) تهذيب الإيضاح، عز الدين التنوخي ٣/١٥٨

يقول الشاعر العاشق لفتاته التي يحبها:

قليـــلٌ منـــكِ يكفينـــي، ولكـــنْ قليلُـــكِ لا يقـــال لـــه: قليـــل

فإذا كانت كلمة رضى، أو نظرة حب، أو ابتسامة رقيقة من فتاة لفتاها منحة عظيمة، وعطاءً جَلَلاً، فكيف يكون «رضوان» من الله على عبده؟

لو مَنَحنا وزير من الوزراء بطاقة صغيرة عليها اسمه، وقدّمناها إلى إنسان، لنا عنده مصلحة وحاجة، لقضى لنا هذا الإنسان حاجتنا.

ولو مَنَحنا رئيس الدولة مثل هذه البطاقة، فإنا بها نصل إلى ما نبتغي، وأكثر مما نبتغي.

هذا وضع الإنسان مع الإنسان.

فكيف إذا كانت البطاقة تحمل كلمة «رضى» ممنوحة مِمَّن خلق الفتاة والفتى، والوزير والأمير والحاكم والملك؟

هذه الكلمة الصغيرة تكفي لتفتح أمامنا أبواب الخير في الدنيا والآخرة، لأنها صدرت من ملك الملوك، من الله خالق الخير والإنسان والسموات والأرض.

إنا نرجح أن تكون كلمة «رضوان» للتقليل تعظيماً لله، واعترافاً بِقَدْرِهِ وجلاله.

تقديم المسنَد إليه

للناس جميعاً قواعد سلوكية يحبونها ويحبون من يقوم بها. من هذه القواعد تقديم العالم على الجاهل، والكبير على الصغير، والفاضل على المفضول، وذلك حين يهمّون بدخول منزل، أو الخروج منه، أو البدء بطعام، أو عمل أي شيء آخر. فالمقدّم هو المستحق الاحترام.

وانتقلت هذه القاعدة إلى البلاغة، فإذا نحن نقدم الأهم على المهم، وذا الفائدة على غير ذي الفائدة، والأصيل على الدخيل، والثابت على المتحوّل.

وانطلاقاً من قواعد السلوك هذه نقدم المسند إليه إذا حمل الأغراض التالية وما شابَهَها.

١ ـ التشويق إلى الكلام المتأخر

قال أبو العلاء المعري:

والـــذي حـــارَتِ البــرِيَّـــةُ فيـــه　　حيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جمادِ[1]

فأول البيت فيه تشويق للسامع على معرفة كنه هذا الذي حارت الدنيا فيه، وداخت العوالم من فعاله، والسامع يتساءل: من هو هذا المخلوق؟ من أيّ عجينة صنع، هل يمشي على قدمين أو أربع، أو يزحف على وجهه أو على بطنه. هل هو من عالم الإنسان أو الحيوان أو الجماد؟ وتتراكض الأسئلة وتتتابع تفتش عن الجواب.

ثم يأتي الجواب: إنه «حيوان مستحدَثٌ من جماد» إذن هو الإنسان الذي خُلق من فخار، وجُبِل من تراب. وآدم أول المخلوقات، صنعه الله من طين أول ما صنعه.

إذن، في التقديم فائدة التشويق. ولهذا فحق التشويق التقديم.

وفرق بين أن نقول: الحيوان المستحدث من جماد حارت البرية فيه، وأن نقول كما قال المعري.

(١) من قصيدة يرثي بها صديقه أبا حمزة الفقيه. المشار إليها سابقاً.

٢ ـ التلذذ بذكره

لقد سبق أن ذكرنا أن المحبّ ـ للإنسان ولخالق الإنسان ـ يلتذ في ذكر محبوبه. باسمه يفتتح كلامه، وباسمه ينهي حديثه. باسمه يبتدىء يومه، وعلى اسمه ينام. وهو على لسانه آناء الليل وأطراف النهار.

هل من المعقول أن يسبق هذا المحبوب كلامٌ؟ وهل من شريعة الحب أن يتقدم على المحبوب شيء؟

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾(١)

ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشر؟

٣ ـ التعجيل بالمسرَّة أو بالمساءة

تصوَّر أنك تقدمت لامتحان فيه يتقرر مصيرك فإذا نجحت فيه قضيت العمر سعيداً، وإذا أخفقت قضيته مبتئساً حزيناً.

واقترب موعد ظهور النتيجة. فرأيت نفسك لا تطيق الوقوف ولا المشي ولا انتظار إعلان النتيجة. فأرسلت صديقاً يستطلع لك الجواب.

لو كان هذا الصديق بليغاً لبشَّرك بالصورة التالية: الناجح أنت. ولا يقول: أنت ناجح. إذ يقدّم كلمة التفاؤل التي تنتظرها وتحب سماعها أكثر من انتظاره كلمة (أنت). وكذلك يقاس على المساءة والتشاؤم.

٤ ـ اختصاصه بالخبر الفعلي إذا سبق بنفي

هذا العنوان يتطلب شرحاً.

إذا قلت: «ما فعلت هذا» فأنت تنفي عنك فعلاً لم يثبت أنه مفعول.

---

(١) سورة النّور، الآية ٣٥.

وإذا قلت: «ما أنا فعلت هذا». فأنت تنفي عنك فعلاً ثبت أنه مفعول.

في المثال الأول «ما فعلتُ هذا» تنفي عن نفسك الفعل، ولكنك لا تثبته لغيرك ولا تنفيه عنه. أنت حياديّ في الجواب. اكتفيت بالكلام عن نفسك. فقد يكون غيرك قد فعله، وقد لا يكون فَعَله.

أما المثال الثاني «ما أنا فعلت هذا» فأنت أوقعت نفي الفعل عن نفسك، واعترفت بأن هذا الفعل كائن. لكنك لم تفعله أنت، وإنما فعله سواك. في هذه العبارة نفيت عن نفسك الفعل، وأثبتّه على سواك. فلو قلت: «ما أنا كسرت الزجاج» قصدتَ نفي الكسر عن نفسك، وأثبتّه على غيرك. وفهم من الجملة أن كسر الزجاج حاصل وواقع. والكاسر ليس أنت، وإنما هو إنسان آخر.

إذاً، في قولنا: «ما أنا فعلت هذا» نفي عن المذكور وإثبات لغير المذكور.

وما دام في هذا التركيب نفي وإثبات، فلا يصح أن يقال: ما أنا كسرت الزجاج ولا غيري. لأن في الكلام تناقضاً. إذ في قولنا «ما أنا كسرت الزجاج» نفي كسر الزجاج عني وإثباته في الوقت ذاته على غيري؛ وإذا لحقت العبارة «ولا غيري» كان التناقض، إذ كيف نثبت الكسر على الغير ثم ننفيه عنه؟

وإذا أردنا نفي الكسر عنا وعن غيرنا وجب أن نقول: «ما كسرت أنا الزجاج ولا كسره غيري» أو «ما كسرت الزجاج ولا غيري» بتقديم الفعل. كذلك يصح أن نقول «أنا ما كسرت الزجاج ولا غيري» بتقديم المسند إليه وتأخير حرف النفي.

إن حرف النفي ينصبّ على ما بعده مباشرة. فإذا قلت: ما فعلت

هذا. انصبّ النفي على الفعل ذاته. أما إذا قلت: ما أنا فعلت هذا. انصبّ النفي على الفاعل وحده، وأفاد أن الفعل مفعول، لكن الذي فعله شخص آخر غير (أنا).

٥ ـ إفادة التخصيص

ويكون التخصيص في حال الإثبات. تقول: أنا كتبت هذه الصفحة. فهذه الجملة تفيد تخصيصك بالكتابة.

فإذا أردت أن تنفي مشاركة غيرك بالكتابة فيمكنك أن تقول مؤكداً «أنا كتبت هذه الصفحة وحدي» فكلمة «وحدي» نفت المشاركة.

وإذا أردت أن تنفي قيام غيرك بالكتابة فيمكنك أن تقول مؤكداً: «أنا كتبت هذه الصفحة لا غيري» فكلمة «لا غيري» نفت قيام غيرك به.

٦ ـ تقوية الحكم وتقريره

وذلك حين تقول: محمّد يعطي الجزيل، وخالد لا يكذب. وسبب التقوية أن (محمداً) مسند إليه، وكذلك (خالد) أما المسند في الأولى فهو الفعل (يعطي) وفي الثانية (لا يكذب) وأنت تعلم من النحو أن فاعل الفعل (يعطي) و(لا يكذب) ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره (هو) يعود على «محمد» أو على «خالد». والضمير (هو) مسند إليه، فكأنّك قلت: يعطي محمد الجزيل. يعطي محمد الجزيل (مرتين). وكذلك قلت: لا يكذب خالد. لا يكذب خالد (مرتين). وقد مرّ هذا في مبحث الخبر.

وتقديم المسنَد إليه في الجملة التي خَبَرُها جملةٌ فعليةٌ أقوى من قولك «يعطي محمد الجزيل»، و«لا يكذب خالدٌ»؛ لأن الإسناد لم يحدث إلاّ مرة واحدة. ولهذا قلنا: إن تقديم المسنَد إليه يقوّي الحكم.

٧ ـ النصّ على عموم السلب أو سلب العموم

فالنص على عموم السلب يعني شمول النفي لكلّ فرد من أفراده

المسند إليه، ويكون عادة بتقديم أداة من أدوات العموم على أداة النفي، نحو: كلُّ الطلاب لم يحضروا. ففي هذا المثال تقدمت أداة العموم (كل) وتأخر حرف النفي (لم)، فهي من عموم السلب أو عموم النفي. وتعني نفي حضور جميع الطلاب.

أما سلب العموم فيكون بتقديم أداة النفي وتأخير أداة العموم، نحو: ما كل الطلاب حضروا. وبهذا الشكل يكون الحضور قد ثبت لبعض الطلاب، ونفي عن بعض آخر.

٨ ـ لفظ «مِثْل» و«غير» في غير التعريض

أ ـ ورد في أساليب العرب قولهم: **مثلك** لا يخون. وهذه الجملة تعني إثبات عدم الخيانة لمثل المخاطب. والمماثل معنى عام يشمل المخاطب وغيره ممن يماثله. فإذا ثبت عدم الخيانة للمماثل لزم ثبوته للمخاطب كذلك، باعتباره أحد أفراد المعنى العام الكلي.

ب ـ وورد في أسلوب العرب قولهم: **غيرك** لا يفي. وتعني هذ الجملة نفي الوفاء عن غير المخاطب، والوفاء صفة معنوية لا بدّ لها من محل تقوم به، وهذا المحل إما أن يكون في المخاطب أو في غيره، فإذا نفيَت عن غير المخاطب لزم ثبوتها في المخاطب.

* * *

تأخير المسنَد إليه

يؤخر المسند إليه إذا كان المقام يقتضي تقديم المسند، وسنذكر في المبحث القادم المواطن التي يجب فيها تقديم المسند وتأخير المسند إليه.

المبحث الرابع

المسنَد

حذف المسنَد

لقد ذكرنا في موجبات حذف المسنَد إليه قاعدةً هي: أنه لا يُحذَف شيء إلا إذا قامت قرينةٌ تدل على المحذوف، وكان موجِب الحذف أقوى من موجب الذكر وأبلغ. وهنا وفي هذا المجال نعيد القول ذاته، ونقوله عن موجبات حذف المسنَد.

ولتسهيل البحث نورد عدداً من مواطن الحذف، ذكرها البلاغيون:

١ ـ ضيق المقام بسبب توجّع، أو بسبب محافظةٍ على الوزن، نحو:

أ ـ ومن يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رحلُه ... فإني وَقَيّارٌ بها لَغَريبُ[١]

أصل كلام الشاعر السجين: فإن لغريبٌ وقيارٌ (وهو اسم فرسه) غريبٌ كذلك.

ب ـ وليس قولُك: مَنْ هذا؟ بضائِرِهِ ... العُربُ تعرفُ مَن أنكرتَ والعَجَمُ[٢]

أصل كلام الفرزدق: والعَجَمُ تعرفه، ولكن المحافظة على الوزن ألجأت إلى حذف المسند.

---

(١) القائل هو: ضابىء بن الحارث البرجمي. انظر: الكتاب لسيبويه ١/ ٣٨.

(٢) ديوان الفرزدق ٢/ ١٧٨ ط. صادر.

٢ ـ **الاحتراز عن العَبَث في ذكره.** نحو قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾[١] فقد حُذف الفعلُ المسنَدُ إلى ضمير المخاطب (أنتم). وهذا الضمير «أنتم» فاعل لفعل محذوف لأن (لو) لا تدخل إلا على الأفعال. وحذف الفعل الأول لوجود مفسره.

٣ ـ **اتباع الاستعمال الوارد عن العرب:**

أ ـ **بعد «إذا» الفجائية.** نحو: خرجت فإذا العواصفُ. والتقدير العواصف **شديدة.**

ب ـ **بعد جواب الاستفهام.** نحو: مَن هذا؟ فتقول: ضيفٌ. أي هذا ضيفٌ.

٤ ـ **أن يقع المسند في جواب سؤال محقَّق أو مقدَّر.** نحو قوله تعالى:

أ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢]

التقدير: **خلقهن** الله. والسؤال وَرَدَ صراحةً في قوله: «ولئن سألتهم».

ب ـ «ليُبْكَ يزيدُ. ضارعٌ لخصومةٍ». فكلمة «ضارعٌ» فاعل لفعل محذوف تقديره: **يبكيه**. فكأن سائلاً سأل: من يبكيه؟ فأجيب: ضارعٌ لخصومة. وفي هذا المثال كان السؤال مقدراً. ومثله قوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ. رِجَالٌ﴾[٣] والتقدير مَن يُسَبِّحُه؟ والجواب: **يُسَبِّحُه** رجالٌ.

بقي أن نقول: هناك أغراضٌ أخرى للحذف تشبه أغراض حذف

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠٠

(٢) سورة لقمان، الآية ٢٥.

(٣) سورة النور، الآية ٣٦.

المسند إليه. كاختيار تنبه السامع، أو صون اللسان عن ذكره، أو صون ذكره عن اللسان، إلخ.

ذكر المسنَد

يذكر المسنَد حيث يجب الذكر، كما يحذف حيث يجب الحذف ويحسن. فمن موجبات الذكر:

١ ـ **ضعف الاعتماد على القرينة**. نحو: المال عَصَبُ الحياة.

إن السامع قد لا يفهم صفة المال لو لم تذكر له. فلقد يفكر أن المال زينة الحياة الدنيا، أو خيرٌ من العقل، أو جالب للسعادة، أو سبب للشقاء، أو مستعمر للأفراد والشعوب أو غير ذلك.

هذا الغموض هو الداعي إلى ذكر المسنَد.

٢ ـ زيادة التقرير والإيضاح

يسأل القاضي الشاهد في قاعة المحكمة: من فعل تلك الفِعلة الشنعاء؟ يجيبه الشاهد: زيد هو الذي فعل تلك الفعلة الشنعاء. زيادة في التقرير والإيضاح وإبعاداً للَّبْس والغموض.

٣ ـ الردّ على المخاطب

فلو سأل سائل: مَن يُحيِي العظامَ وهي رَمِيمٌ؟ فالجواب: يحييها الذي أنشأها أول مرة.

فِعلية المسنَد

الفعل يدل على أحد الأزمنةِ الثلاثة مع الاختصار. وإذا كان المسند فعلاً دلّ على الزمن وأفاد التجدد والحدوث.

فلو قال قائل:

ووالله ما فارقتكم عن ملالةٍ ... وجُهدي لكم أني أقول وأحلف[1]

فإنه دل على أنه ما فارق أحبابه مَلَلاً، وإثباتاً على ما ادعاه يقول هذا ويكرره ثم يحلف صادقاً.

الأفعال: «فارقتكم»، و«أقول» و«أحلف» دلّت على زمن، أو زمن حاضر. وفي الفعل بصورة عامة إشارة إلى حدوثٍ لعمل كالمفارقة، والقول، والحلف، وفيه ـ كذلك ـ معنى التجدد. لأن الفعل لا يتم إلا في نطاق الزمن. والزمن مؤلف من لحيظات وثوانٍ ودقائق وساعات وأيام وشهور وسنين. وفي هذا الزمن يحدث الفعل، ابتداءً وانتهاءً.

اقرأ قول بهاء الدين زهير تجد الزمن المتحرك المتجدد، وتحسّ بالحدوث وبالفعل والاضطراب والحركة الدائبة:

أأحبابنا! ماذا الرحيلُ الذي دنا؟ ... لقد كنتُ منه دائماً أتخوف

هَبُوا ليَ قلباً إنْ رحلتم أطاعني ... فإني بقلبي ذلك اليومَ أعرَف

ويا ليت عيني تعرف النوم بعدكم ... عساها بطيفٍ منكُمُ تتألّف

قفوا زوّدوني إنْ مَنَنْتُم بنظرةٍ ... تعلّل قلباً كاد بالبين يتلف

تَعالَوا بنا نَسْرِقْ من العمر ساعةً ... فنجني ثمارَ الوصلِ فيها ونقطِف[2]

اسميّة المسنَد

إذا كان الفعل يدل على حدوث وزمن، فإن الاسم يدل على ثبوت واستقرار، ويخلو من الزمن.

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٦٥ ط. دار المعارف.

(٢) المصدر السّابق ص ١٦٧

لو قلت: «الغرفة واسعة». فإنك تقصد أن صفة هذه الغرفة هي «السَعَة»، وهذه الصفة ثابتة لا تتغير، لا في الصبح ولا في المساء، لا في الصيف ولا في الشتاء.

ولقد عبّرنا عن هذا الثبوت والاستقرار بالاسم.

اقرأ أبيات بدوي الجبل تشعر بروعة الفنّ، وقيمة المسنَد الاسميّ، حين يقع في مكانه الصحيح:

هـواجـسٌ أنـتِ دنيـاهـا ومَعـدِنُهـا ... فكيـف تبـدع إلا النّـورَ والطـربـا
المتــرفــاتُ وأحــلاهــا وأملَحُهــا ... طيفٌ مع الفجر من أهدابه انسربا
بينـــي وبينَـــكِ أنســـابٌ مُـــوَثَّقَـــةٌ ... هذا اللهيب بقلبي خَيرُها سبَبا
هـواكِ عنـدي مقيـمٌ فـي مـواطنـه ... فإن تحوّل عن نعمائها اغتربا
أغليتُ نعمى الهوى عندي ومحنته ... فحبُّ ما مَرَّ منه حبّ ما عَذُبا
مدامعي فيكِ لو أكرمتِ جوهرها ... أكرمتِ فيها الهوى والشعر والعربا
أُجِلّ بابَكِ عن طول الوقوف به ... فقرُ الكريم تجلّى صمتُه طَلَبا[1]

تنكير المسنَد

يكون المسنَد نكرة لأغراض عدة، منها:

١ ـ **عدم إرادة تعيينه أو حصره**. نحو: زيد كاتب. فأنت تريد بكلمة «كاتب» أن تصفه بصفة الكتابة، ليس إلاّ، دون زيادة في المعنى أو نقصان.

٢ ـ **التفخيم والتعظيم** نحو: إن شوقياً شاعرٌ. فالوصف لشوقي بالشاعرية قد تحمل في طواياها تفخيماً أو تعظيماً.

٣ ـ **التقليل والتحقير**. نحو: نصيبي من ميراث أبي شيءٌ. فالوصف

---

(١) ديوان بدوي الجبل ص ٣٩٥ وعنوان القصيدة: «هواجس».

للموروث بكلمة «شيء» قد تشير إلى قلةٍ أو إلى كمية تافهة لا قيمة لها.

* * *

في الحقيقة، ليست النكرة في تركيب حروفها هي التي حملت معنى التفخيم أو التقليل أو التعظيم أو غير ذلك، إنما سياق الجملة من ناحية، ولهجة المتحدِّث من ناحية ثانية، ونفسية المخاطب من ناحية ثالثة، ومقتضى الحال أولاً وأخيراً هي التي لوَّنت النكرة بتلك الألوان، وتستطيع أن تلونها بأكثر مما فعلت بكثير.

* * *

تعريف المسنَد

الأصل في المسند الاسمي أن يكون نكرة، نحو: زيدٌ كاتب. ويعدل عن تنكيره إلى تعريفه لدواع بلاغية. منها:

١ ـ إفادة التعيين أو التخصيص

إن علماء البلاغة عبّروا عن هذه الغاية بقولهم: «إفادة السامع حكماً بأمر معلوم عنده بإحدى طرق التعريف على أمر معلوم له كذلك».

بيان ذلك: أن الشيء قد يكون له صفتان من صفات التعريف، ويعلم المخاطب اتصافه بإحداهما دون الأخرى، فتخبره باتصافه بها؛ وحينئذ يجب تقديم المحكوم عليه «المسند إليه» وتجله مبتدأ، وتؤخر المحكوم به «المسنَد» وتجعله خبراً.

مثال ذلك: عليٌّ الخطيب. فالمخاطب يعرف «علياً» بعينه، ويعرف في الوقت نفسه أن في البلدة خطيباً، ولكنَّه لا يدري أن علياً هذا هو «الخطيب». وحينئذ تجعل المعلوم عنده مبتدأ، وهو «علي»، وتجعل

المجهول الذي هو «الخطيب» خبراً، فتقول له: علي الخطيب.

وإذا كان يعرف العكس، أي يعرف أن في البلدة خطيباً، ويعرف أشخاصاً كثيرين كأحمد ومحمد ومصطفى وعلي وخالد ووضاح، ولكنه لا يدري من هو الخطيب، فتعيّنه له، وذلك بأن تجعل المعلوم «الخطيب» مبتدأ، والمجهول الذي هو «علي» خبراً. فتقول له: الخطيب عليّ.

بعبارة أخرى، نلتفت إلى الثابت والمتغير في الجملة، فنقدم الثابت ثم نأتي بالمتغيّر.

ولتوضيح هذه العبارة نشير إلى أن كثيراً من علماء النحو فرقوا بين المبتدأ والخبر، إذا كانا معرفتين. فقالوا: أقوى المعارف هو الضمير، ثم العَلَم، ثم الإشارة، ثم الموصول، ثم المعرّف باللام، ثم المضاف إلى معرفة. وبناءً على هذا الأساس قالوا في إعراب: العالم زيد: العالم خبر مقدم، وزيد مبتدأ مؤخر. وعللوا ذلك بأن العَلَم أقوى في المعرفة من المعرّف باللام، وجعلوا الأقوى مبتدأ، والأضعف خبراً.

وهناك فريق آخر من النحويين لم ينظر هذه النظرة، وعدَّ المعارف متساوية، وأعرب المتقدم مبتدأ، والمتأخر خبراً وقال عن «العالم زيد»: «العالم» مبتدأ، «وزيد» هو الخبر.

وسار علماء البلاغة سيرة الفريق الثاني من النحويين، فعَدُّوا المتقدم مسنداً إليه، والمتأخر مسنداً.

وحين نفرق بين الجملة التي قام فيها المسند إليه والمسند معرفَتينِ نقدم الذي نعرفه، ونتثبت منه، ونؤخر العنصر الثاني.

إذا علمنا «الذات» المتمثل في شخص «عليّ» ـ مثلاً ـ وجهلنا صفته: أهو الحاكم، أم القاضي، أم المعلم، أم التاجر، أم الخطيب، أم المؤذن،

قدّمنا المعلوم وهو «عليّ» ثم أتينا بصفته فقلنا «الخطيب».

أما إذا علمنا الصفة، ولتكن صفة «الخطيب» وعرفنا أن في البلدة رجالاً كثيرين، وجهلنا من هو ذلك الخطيب، قلنا في تعيينه: إنه «عليّ» فصارت الجملة «الخطيب عليٌّ».

إذاً، نقدم الثابت أولاً ونجعله المسند إليه، ثم نأتي بالمسند الذي هو المتغيّر

وهذا هو مغزى عنوان هذه الفقرة.

٢ ـ المبالغة في قصر المسنَد على المسند إليه

إذا وصفنا رجلاً بقولنا «أنت الشاعر» نكون قد قصرنا أوصافه جميعاً على صفة الشاعرية، وتجاهلنا الشعراء الباقين تجاهه، لكمال معنى الشاعرية فيه، فكأننا أردنا أن نقول: ليس هناك شاعر سواك، وكل من عداك هباء.

حُسْنُكِ عِطْرُ العطرِ في جنتي ... على غِناها ولُبانِ اللّبان
ومُلْكُكِ البدرُ وشمسُ الضحى ... وما يصوغان وما يغزلان[1]

* * *

تقديم المسنَد

يقدَّم المسنَد على المسند إليه لأغراض أهمها:

١ ـ قصر المسند إليه على المسند

فلو قلت: عربيٌّ أنا. فكلمة «عربيّ» مسنَد مقدّم (خبر مقدم)، وكلمة

---

(١) ديوان بدوي الجبل ص ٤٠٥ وعنوان القصيدة: «النّبع المسحور».

«أنا» مسند إليه مؤخر (مبتدأ مؤخر).

هذا التركيب يقصر المتكلم الذي هو (أنا) على صفة العروبة، لا يتعداها إلى سواها

ولو قرأنا قوله تعالى في وصف خمور الجنة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[1] فهمنا قصر «عدم وجود الغول» في خمور الجنة وحدها.

وفرق كبير بين قولنا «لا غولَ فيها» وقوله تعالى «لا فيها غَوْلٌ»

العبارة الأولى تنفي وجود الغول في هذه الخمرة ولكنها لا تتعدى في النفي إلى خمورٍ غيرها؛ فقد يكون فيها الغَوْل ـ الذي يغتال العقول ـ وقد لا يكون. أما الآية «لا فيها غَوْلٌ» فتقصر عدم وجود الغَوْل في خمرة الجنة، وتثبت وجوده في غيرها.

وكذلك قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] فإنه يقصر الملكية على الله جل جلاله.

أما إذا قلنا: مُلْك السماوات والأرض لله. فإن ذلك يعني أن الله يملك السماوات والأرض، ولا يمنع مانع من أن يكون سواه مالكاً لها كذلك.

هذا التقديم للمسند على المسند إليه أفاد القصر على المسند إليه وحده.

٢ ـ التفاؤل أو التشاؤم

نحب من يقول لنا: سَعِد صباحُك وطاب يومك، أكثر من قوله:

---

(١) سورة الصّافّات، الآية ٤٧

(٢) سورة المائدة، الآية ١٢٠

صباحُك سعيد، ويومك طيّب. لأنه بدأ بالكلمة ذات الوقع الحسَن على آذاننا وقلوبنا.

ونكره من يقول لصاحبه: خسرت تجارتك. لأنه بدأ بكلمة «الخسارة»، إذ كان يستطيع الإخبار عن نبأ السوء متأخراً فيقول: تجارتك خَسِرت. والفرق بسيط، يكمن في استهلال الكلام وبدئه ليس إلاّ

٣ ـ التشويق إلى المسند إليه

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمسُ الضحى وأبو إسحاق والقمر

فكلمة «ثلاثة» مسنَد، وهو نكرة، وقد لحقته أوصاف مشوقة إلى معرفة من هم هؤلاء الذين تشرق الدنيا ببهجتهم ووجودهم.

هذا التشويق هو المسوّغ للمسند النكرة أن يحلّ أولاً

المسنَد الجملة

يكون المسند جملة فعلية أو اسمية لغايات. منها.

١ ـ تقوية الإسناد: نحو: طَلْعةٌ تفرح العيون. ونحو: المؤمنون إذا ما بايعوا صَدَقوا. ونحو: المرهفات أنت سيّدها.

٢ ـ إفادة التجدد أو الثبوت: والتجدد يكون في المسند الفعلي، كما يكون الثبوب في المسنَد الاسميّ.

زَهَرات السماء حَيّا بها قَوْ مي من الحُورِ في السماءِ رسولُ
أرزُ لبنان أيكةٌ في ذُرانا والفراتان ماؤنا والنيل[1]

---

(١) ديوان بدوي الجبل ص ٣٢٩ وعنوان القصيدة: «أينَ أينَ الرّعيلُ من أهل بدر؟».

المبحث الخامس

أحوال متعلقات الفعل

للفعل في اللغة العربية مقام كبير، وعليه يعتمد التعبير، ومنه تصدر المعاني.

هذا الفعل الذي رأينا في مواطن سابقة أنه يفيد التجدد والحدوث، ويحمل معنى الزمنية في صياغته، فيدل على زمن انقضى، أو زمن حاضر، أو زمن قادم في المستقبل، يتقدم على فاعله، أو يتأخر عنه. وفي تقدمه يحمل غاية يسعى إليها، وفي تأخره دلالة يرمي إليها. ويتعدى إلى مفعول، وإلى أكثر من مفعول. فيظهر المتعدَّى عليه عياناً، ولا يظهر أحياناً أخرى، وإنما يشم القارىء رائحته ويعرف مكانه. وقد لا يتعدى على أحد، فيلزم حدوده، ويكتفي بفاعله، ويقعد هادئاً مستريحاً ومريحاً.

ويسوق المتعدي أحياناً ما تعدى عليه أمامه، ويقدمه على نفسه أحياناً أخرى لغاية في نفسه.

وترتبط به مفاعيل شتى، وأحوال، وظروف، وتمييز، فإذا هي معه كيان واحد؛ تتأخر عنه فتؤدي دوراً، وتتقدمه فتؤدي دوراً آخر.

وتلتصق بالفعل أدوات شرط، فإذا معنى الفعل ملتصق بهذه الشروط، له منها جزء من معانيها، وله من ذاته وحروفه المعنى الباقي.

* * *

وها نحن أولاء نفصِّل القول في هذه المواقع، لعلنا في نهاية المطاف نستطيع الوقوف على سرّ التعبير الفنّي البديع، أو لعلنا نستطيع التصرف بالكلام فنُنشِىء تعبيراً فنياً بديعاً.

* * *

تقدم الفعل وتأخره

لقد سبق القول في أسباب تقدم الفعل على فاعله، وكان من هذه الأسباب إفادة التفاؤل أو التشاؤم. والإشارة إلى الزمن في مضيّه أو حاضره أو قادمه.

كذلك كان من أسباب تأخره تقوية الحكم وتأكيد المعنى.

الفعل اللازم والمتعدي

الفعل اللازم هو الذي لا يتعدى إلى مفعول. نحو: رَجَع المسافر.
والمتعدي هو الذي ينصب مفعولاً أو أكثر نحو: كتب الغريب رسالةً.
فإذا قلت: كتب الغريبُ، فإنك أسندت فعل الكتابة إلى الغريب.

وإذا قلت: كتب الغريب رسالة، فإنك عدّيت الفعل، وأثبتّ وقوع الكتابة من الغريب على الرسالة.

إذن، الفعل «كتب» أفاد وقوع الكتابة من الفاعل، وأفاد وقوعها على المفعول.

أما إذا رغبت في التعبير عن حدوث الكتابة، دون أن تقصد مَن الكاتب، وماذا كتب فقل: حصلت كتابة، أو كانت كتابة.

* * *

ولعبد القاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» تحت عنوان: «القول في الحذف» كلام لطيف في هذا المعنى. قال رحمه الله:

«حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل، وكما أنك إذا قلت: ضرب زيد، فأسندت الفعل إلى الفاعل، كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلاً له، لا أن تفيد وجود الضرب في نفسه وعلى الإطلاق. كذلك إذا عدّيت الفعل إلى المفعول، فقلت: ضرب زيد عمراً، كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني، ووقوعه عليه، فقد اجتمع الفاعل والمفعول في أن عمل الفعل فيهما إنما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذي اشتق منه بهما. فعمل الرفع في الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه، والنصب في المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه، ولم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب في نفسه، بل إذا أريد الإخبار بوقوع الضرب ووجوده في الجملة من غير أن ينسب إلى فاعل أو مفعول، أو يتعرض لبيان ذلك، فالعبارة فيه أن يقال: كان ضرب، أو وقع ضرب، أو وجد ضرب، وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد في الشيء»[١]

إن الفعل المتعدي الذي يتجرد عن مفعوله يصبح كاللازم، ويتسع مدلوله من نطاق محدود في المفعول إلى نطاق عام ومدلول واسع.

لنقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾[٢] فإن مدلولها يتجلى في السؤال هل يستوي من له علم، ومن لا علم له؟

هذا الحذف للمفعول جعل الفعل المتعدي «يعلمون» كاللازم؛ واتسع بعدئذ ما يمكن أن يدل عليه. ويصحّ المعنى لو قلنا: هل يستوي

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٨

(٢) سورة الزّمر، الآية ٩

الذين يعلمون علوم الدين، أو علوم الدنيا، أو علوم الفلك، أو الرياضة، أو الجغرافية، أو قيادة السيارة، أو ركوب الدراجة، أو السباحة، أو ركوب الخيل، أو فن الصيد أو. إلى آخر ما هنالك من أمور في الحياة. مع الذين لا يعلمونها؟

لقد اتسع مدلول «يعلمون» حين حذف مفعوله اتساعاً كبيراً.

ومثله حيث نقول: فلان يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويصل ويقطع. حذفت المفاعيل المخصوصة المحدودة المعنى، وراح الفعل قابلاً تفسيره كل معنى، أو كاللازم.

من ذلك قول البحتري يمدح المعتز ويعرّض بالمستعين:

شَجـــوُ حسّـــاده وغَيـــظُ عِـــداه أن يَـرَى مبصــرٌ ويسمــع واعِ[1]

الشاهد في قوله: يرى مبصرٌ، ويسمع واعٍ، إذ حذف المفعول، فصار الفعل المتعدي كاللازم، وأصبح المعنى: إن محاسنَ المعتز وفضائله يكفي فيها أن يقع عليها بَصَرٌ، ويعيها سمعٌ، فيعلم أنه مستحق للخلافة، حتى إن حساده يتمنّون ألا يكون في الدنيا مبصر، ولا سامع يعي، كي يخفى استحقاقه لشرف الإمارة، ليجدوا بذلك سبيلاً إلى منازعته إياها[2]

حذف المفعول

إذا كان المفعول مخصوصاً فإنه يحذف لدواعٍ. منها:

١ ـ البيان بعد الإبهام

ويكون ذلك بعد فعل المشيئة غير المعدّاة إلى شيء إذا سُبقت بأداة شرط؛ على أن يكون المفعول عامًّا لا خاصاً. نحو ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(١) ديوان البحتري ص ١٢٤٢، ومطلع القصيدة: «لك عهدٌ لديَّ غيرُ مُضَاعِ».
(٢) انظر التبيان في علم البيان لابن الزملكاني، طبعة العاني ببغداد، ص ١٤٥

﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾[1] والتقدير: ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم. ومثله قولك: لو شئت قمت. التقدير: لو شئت القيام لقمت.

تفسير ذلك أنك حين قلت: «لو شئت» علم السامع أنك علّقت المشيئة بشيء، فيقع في نفسه أن هناك شيئاً تعلّقَتْ به مشيئتك بأن يكون، أو لا يكون، فإذا قلت: «قمت» عرف ذلك الشيء. وهذا معنى «البيان بعد الإبهام».

يبقى متعلق فعل المشيئة في الشيء النادر الحدوث، أو الغريب، أو الذي لا يعرفه المرء مباشرة. كقولك: لو شئت أن أبكي دماً لبكيت. فالبكاء دماً لا يحدث على الدوام، ولا يتبادر إلى الذهن فوراً، ولذلك فإنه يجب أن يذكر ولا يحذف.

٢ ـ دفع توهم غير المراد

قال البحتري:

وكم ذُدتَ عني من تحامل حادث	وسَورةِ أيامٍ حَزَزنَ إلى العظم[2]

لو ذكر الشاعر مفعول الفعل «حزن» وقال: «حَزَزْنَ اللحم» لتوهم السامع أن الحزّ لم يكن أليماً عنيفاً كما أراده الشاعر، فدفع عن سامعه هذا التوهم فحذف المفعول، وصوّر له أن الحزّ مضى في اللحم حتى لم يردّه إلا العظم.

٣ ـ التأدب في الحديث

روي عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كنت **أنا** ورسول

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٥.
(٢) ديوان البحتري ص ٢٠١٨، ومطلع القصيدة: «أعَنْ سفَهٍ يومَ الأُبَيْرِقِ أم حِلْمِ».

الله ﷺ نغتسل من إناء واحد، فوالله ما رأيت منه ولا رأى مني.

لقد حذفت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ مفعول «رأيت» و«رأى» الذي هو «العَورة» تأدباً.

ومدح البحتري فقال:

قد طلبنا، فلم نجد لك في السُّؤ ... دَدِ والمجد والمكارم مثلاً[1]

أصل البيت: قد طلبنا لك مثلاً وشبيهاً في السؤدد والمجد والمكارم، فلم نجد من يماثلك.

لقد حذف البحتري مفعول «طلبنا» ولم يحذف مفعول «لم نجد» فلماذا؟ يبدو لنا أن البحتريّ كان في غاية التهذيب في هذا الحذف للفعل «قد طلبنا» وفي الذكر لفعل «لم نجد». والسبب أنه من العيب أن يقال لملك أو وزير أو أمير أو ممدوح أو حبيب: قد طلبنا لك مثلاً فلم نجد؛ لأن الإزماع على طلب مثيل، والتصريح بهذا الطلب معيب.

٤ ـ التعميم مع الاختصار

مثل ذلك لو قلت لصاحبك الذي آلمك بقوله وبفعله: قد كان منك ما يؤلم. فأنت حذفت مفعول «يؤلم» مريداً التعميم في المعنى والشمول. فكأنك قصدت: قد كان منك ما يؤلمني ويؤلم كل إنسان.

٥ ـ الاختصار

مثله لو قلت: «أنا أصغي إليك» فالمفهوم أنا أصغي «أذني» إليك. وحذف المفعول للاختصار وحده؛ لأنه يفهم من سياق الكلام.

---

(١) ديوان البحتري ص ١٦٥٧، ومطلع القصيدة «إن سيْرَ الخَليط حين استقلاّ».

٦ ـ المحافظة على موسيقى الكلام

مثل ذلك في سورة الضحى. ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ (١)

لقد حذفت الكاف الدالة على المفعول من «قلى» رعاية للفاصلة، أو حفاظاً على موسيقية التعبير.

* * *

تقديم المفعول على الفعل

الأصل في المفاعيل، والحال، والتمييز أن تلي فعلها، لأنها تابعة له، ومتعلقة به. ولا تتقدمه إلا لغاية فنيّة وغرض معنوي. ومن هذه الأغراض:

١ ـ ردّ الخطأ في التعيين

تقول: زيداً عرفتُ، لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً، وأنه غير زيد. فتقديم «زيداً» ثبّت المرئيّ، ونفى توهم سواه.

فإذا أردت توكيداً أكثر فقل: زيداً عرفتُ لا غيره. ونحب أن نوضح نقطة في هذا الموضوع تتلخص في أن تقديم المفعول أفاد إثباتاً ونفياً في آن واحد. إثباتاً لرؤية زيد، ونفياً لرؤية سواه.

فإذا قال قائل: ما زيداً رأيت ولا غيره، بطل كلامه، لأنه وقع في التناقض. إذ نفى رؤية زيد نفياً مؤكداً ـ بطريق تقديم المفعول ـ وأثبت في الوقت ذاته أن الرؤية كانت لغير زيد، وذلك في مطلع الكلام ـ ما زيداً رأيت

---

(١) سورة الضّحى، الآيات ١ ـ ٤.

ـ والتناقض كان في قوله «ولا أحداً» إذ كيف يثبت رؤية غير زيد في أول الكلام، وينفيه في آخره؟

ولو قال قائل: ما زيداً أكرمت بل أهنت. قلنا: هذا التعبير غير صحيح. لأن أول الكلام «ما زيداً أكرمت» دلّ بشيء من التأكيد على أن زيداً لم يكن له من إكرام المتكلم شيء، وإنما هناك شخص آخر غير زيد كان له هذا الإكرام. إذاً محور الكلام كله في هذا التعبير يدور حول ذات «زيد» إيجاباً أو سلباً. فإذا أريد تعيين المكرَم قيل: ما زيداً أكرمت بل بكراً. أما قول القائل: ما زيداً أكرمت بل أهنت، فخطأ، لأن الحديث عن تعيين الأشخاص لا عن الأفعال.

أما إذا أريد نقض الأفعال فيجب أن تكون العبارة: «ما أكرمت زيداً بل أهنت» بتقديم الفعل.

٢ ـ إرادة التخصيص

والتخصيص ملازم للتقديم أبداً.

نقول متوجهين إلى الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] بمعنى: نخصك يا ربنا بالعبادة ونخصك بالاستعانة. لا نعبد سواك، ولا نستعين بغيرك.

ولو قلنا: نعبدك ونستعينك. دلّت العبارة على أن العبادة لك، دون أن يمنع مانع من عبادة سواك، والاستعانة بغيرك.

لو قلت لأحد الأصدقاء: «أحبك» فإنك تعني أن له في قلبك مكاناً من الحب. ويجوز لك أن تحب سواه من الناس أكثر من حبه أو أقل.

أما إذا قلت له: إياك أحب. نفيت حب سواه، وخصصته بالحب كله.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

ومثل هذا: إلى الله تُرْجَعونَ، إلى الله المصيرُ، عليكَ توكلتُ، إليك أَنَبْتُ، بك آمنتُ.

* * *

تقييد الفعل بالشرط

الفعل الذي نعنيه في هذا البحث هو فعل الشرط وحده، والشرط الذي نريد الحديث عنه محصور في الأدوات: إنْ، وإذا، ولو. أما باقي الأدوات فمكان الحديث عنها في علم النحو.

تشترك «إنْ» و«إذا» في نقل الشرط من الماضي إلى المستقبل. تقول: إن جئتُ فأكرمني. وإذا جئتُ فأكرمني. فالفعل«جئتُ» ماضٍ في ظاهره، مستقبل في معناه. وسبب قلبه من المضيّ إلى الاستقبال أداة الشرط.

أداة الشرط «إنْ» لا تكون إلا في الشرط غير المقطوع بحدوثه.

وأداة الشرط «إذا» لا تكون إلا في الشرط المقطوع بحدوثه.

لو قلت لصاحبك: إن جئتُ فأكرمني. فمجيئك غير مؤكد، أما لو قلت: إذا جئتُ فأكرمني. فمجيئك مؤكد.

وبهذه المناسبة تروي لنا كتب السيرة قصَّة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه بكى عند نزول قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾[1] فتعجب الصحابة من بكائه، وسألوه. فأجابهم بأن محمداً سيموت عما قريب، فتعجبوا أكثر، وعادوا إلى سؤاله. فقال لهم: سيجيء نصر الله والفتح، وسيدخل الناس في دين الله أفواجاً. ذلك مؤكد ومحتم. بدليل «إذا».

---

(١) سورة النَّصر الآيتان ١ و ٢

أما «لو» فتدخل ـ غالباً ـ على الفعل الماضي، وتدل على عدم حدوثه. ولهذا فعلماء النحو والبلاغة يقولون عنها: حرف امتناع لامتناع.

إذا قلت: لو جئت لأكرمتك. فذلك يعني أنك لم تجىء، وأنه لم يحدث مني إكرام لك.

* * *

إنْ كنتَ حبيبي ساعدني كي أرحلَ عنك
أو كنتَ طبيبي ساعِدني كي أُشفى منك
إن كنتَ قوّياً أخرِجني من هذا اليَمّ
فأنا لا أَعرِف فَنَّ العَوْم

لو لم يشكّ في حبّه، أو في طبّه، أو في قوته، ما استخدم أداة الشرط «إنْ».

* * *

لو أني أعرفُ أنّ الحبَّ خطيرٌ جداً ما أحببت
لو أني أعرفُ أنّ البحرَ عميقٌ جداً ما أبحرت
لو أني أعرفُ خاتِمتي ما كنتُ بدأت[1]

ولكن هيهات. فهو لا يعرف خطورة الحب، ولا عمق البحر، ولا النهاية المفجعة للمحبين. لهذا الجهل أقدم، فَهَوى.

* * *

(١) الشعر لنزار قبّاني والقصيدة عنوانها: «رسالة من تحت الماء».

المبحث السادس

القَصر

تُؤكِّد الجملةُ الخبرية بمؤكدات عدة؛ من جملتها أسلوب القصر.

والقصر في عرف اللغويين هو الحَبس والإلزام؛ وفي عرف البلاغيين: تخصيص شيء بشيء، أو تخصيص أمر بآخر بطريقٍ مخصوصة.

من فوائد أسلوب القصر أنه يجعل الجملة الواحدة مقام جملتين مع الإيجاز، ويمكّن الكلام، ويقرره في الذهن، وينفي عن الفكر كل إنكار وشك.

معنى كلمتي: «الصفة» و«الموصوف» في القصر

تتردد في بحث القصر كلمتان: **صفة وموصوف**، فيقال: قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة؛ ومن الواجب فهم المقصود منهما قبل تفصيل الموضوع.

«الصفة» في القصر غير «النَّعت» في علم النحو، فإذا قلنا: «جاء الصيف»، نكون وصفنا «الصَيفَ» بالمجيء؛ «فالصيف»: موصوف، و«جاء»: صفة.

وإذا قلنا: «السماء صافية»، نكون وصفنا «السماء» بالصفاء، «فالسماء»: موصوفة؛ و«صافية»: صفة.

وإذا قلنا: «للحرية الحمراء بابٌ»، نكون وصفنا «الحرية الحمراء» بتملّك «باب». فـ«الحرية الحمراء» موصوف، و«الباب» صفة.

في المثال الأول، قلنا عن الفعل «جاء» صفة، وفي المثال الثاني قلنا عن الخبر «صافية» صفة، وفي المثال الثالث قلنا عن المبتدأ المؤخر «باب» صفة. وفي هذا خلاف البلاغة عن إعراب النحويين.

البلاغة تهتم في المقام الأول بـ«معنى الكلمة» ودلالتها؛ دون أن تعبأ كثيراً بإعرابها، أو التقيد بقوانين الإعراب النحوية.

معنى كلمتي «المقصور» و«المقصور عليه»

ذكرنا تعريف القصر عند البلاغيين فقلنا: إنه تخصيص شيء بشيء، أو أمر بآخر بطريق مخصوصة.

فلو قلنا: «لا فتى إلا عليّ» نكون قصرنا صفة «الفُتُوَّة» على شخص «عليّ» وحدَه، دون سواه من العالمين.

فكلمة «لا فتى» هي «المقصور» وشخص «عليّ» هو «المقصور عليه».

وقد وصلنا إلى هذا التخصيص والحصر بطريق نفي الفتوة عن كل إنسان، وإثباتها لِعَلِيّ وحده. وهذا ما عَنَوه بقولهم: بطريق مخصوصة.

وإذا قلنا: «لا خالق إلا الله» نكون قصرنا صفة «الخلق» على «الله» وَحْدَه.

فكلمة «لا خالق» هي «المقصور»، وكلمة «الله» هي «المقصور عليه».

وقد تَمَّ القصر بطريق النفي والإثبات.

وإذا قلنا: «إنما أنت المُرَجَّى للشدائد» نكون قصرنا المخاطب الممدوح «أنت» على «موطن الرجاء والأمل وقت الشدائد».

فكلمة «أنت» مقصور، و«المرجَّى للشدائد» مقصور عليه.

وقد تمَّ القصر بطريق الأداة «إنما».

معنى كلمتي «قصر حقيقي» و«قصر إضافي»

القصر الحقيقي: ما اختص فيه المقصور بالمقصور عليه، بحيث لا يتجاوزه إلى غيره أصلاً، على وجه الحقيقة أو على وجه الادّعاء ـ المبالغة.

لِنَعُد إلى المثال السابق: «لا خالقَ إلا الله» لقد قصرنا صفة «الخَلق» على «الله» وحده. وهو قصر حقيقي. إذ ليس في الوجود أحد يستطيع أن يخلق حتى ذبابة حقيرة صغيرة.

ولو قلنا: «ما زيدٌ إلا كاتب» فإنا قصرنا شخص «زيد» على صفة الكتابة، ونفينا عنه كل صفة أخرى سواها.

بتعبير آخر: حصرنا زيداً بصفة واحدة في الدنيا لا يتصف بغيرها، وهي صفة الكتابة. أي ليس شاعراً، ولا رجلاً، ولا آكلاً، ولا شارباً، ولا

هذا القصر هو قصر موصوف على صفة. وهذا النوع يكاد يكون مستحيلاً

أما إذا قلنا: لا فتى إلا عليّ. فهو قصر صفة على موصوف.

فقد يكون في البلد رجالٌ، فيهم شجاعة، وفيهم فتوة، ولكنهم لا يُعَدّون شيئاً بجانب شجاعة عليّ وفتوته. نكون قد تجاهلنا وجودهم، وحصرنا الشجاعة والفتوة في عليّ حصراً حقيقياً على سبيل المبالغة أو الادِّعاء.

أما القصر الإضافي فهو الذي يختصّ فيه المقصور بالمقصور عليه

بالنسبة إلى شيء معين، بحيث لا يتعداه إلى ذلك الشيء، ويصحّ أن يتعداه إلى شيء آخر

فإذا قلنا: ما كتب إلا محمد. فَغَرَضُنا تخصيص الكتابة بمحمد، وقصرها عليه. فلا تتعداه إلى سعيد أو ميخائيل أو خالد. فهذا القصر إضافيّ.

وإذا قلنا: إنما أنت شاعر. فَغَرَضُنا تخصيص المخاطب بصفة الشاعرية، وقصره عليها. فلا يتعداها إلى النثر، أو الخطابة، أو الفنون الأدبية الأخرى. وهذا القصر إضافيّ.

وإذا قلنا لرجل وقع في حَيْرة، أيختار الوظيفة مهنةً له ومعاشاً أم يختار العمل الحرَّ والتجارة المغامِرَةَ: إنما الأَرْبَحُ العملُ الحرّ وبقولنا نكون قصرنا الربح على العمل الحر، لا على الوظيفة الحكومية المحدودة الدخل والراتب الشهري. هذا القصر إضافيّ.

القصر الإضافيّ ـ إذاً ـ يكون دائماً بالنسبة إلى شيء معيَّن.

* *

نستطيع بعد ضرب الأمثلة أن نصل إلى الخلاصة التالية:

القصر الحقيقي ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع بألاّ يتجاوزه إلى غيره أصلاً

القصر الإضافي ما كان التخصيص فيه بحسب الإضافة إلى شيء آخر معيَّن، لا بالنسبة إلى جميع ما عداه.

* * *

القصر الإضافيّ وحال المخاطب

هذا اللون من القصر الإضافي يتدخل فيه العقل، والذكاء، والنباهة، ودراسة نفسية المخاطب، وفهم الجوّ الذي يَلُفّ تفكيره، والمحيط الذي يعيش فيه، ليكون الكلام وفق مقتضى الحال.

من هذه المنطلقات نتقدم إلى تقسيم القصر ـ منظوراً فيه إلى حال المخاطب ـ فنجده ثلاثة أقسام:

أ ـ قصر إفراد.

ب ـ قصر قَلب.

ج ـ قصر تعيين.

أ ـ قصر الإفراد

يخاطَبُ به من يعتقد الاشتراك.

قد يعتقد المخاطب أن زيداً وعَمراً ارتكبا معاً جريمة، وأردتَ أن تنفي اشتراكهما في هذه الجريمة، وتقصرها على زيدٍ وحدَه. فتقول: ما المجرم إلاّ زيد. فتكون قد أفردتَ زيداً، وقطعتَ عن مخاطَبِكَ فكرة الاشتراك مع عمرو. فهذا اللون هو المسمى: **قصر إفراد**.

مثال آخر: **قد يعتقد مخاطَبُك بأنّك طالبٌ في النهار، وعازفٌ في الليل**، وتريد أن تنفيَ من ذهنه هذه الازدواجية في العمل: طلب العلم في النهار، والعزف على الآلات في الليالي، فتقول له: ما أنا إلاّ طالب علم. هذه الجملة فيها قصرٌ إضافي: قصر الموصوف على صفة. وهي **قصر إفراد** لأنها نفت فيه الشركةَ مع العزف.

ب ـ قصر القلب

يخاطب به من يعتقد العكس.

قد يظنك أحد الناس تاجراً، وأنت في الحقيقة طالبٌ، وتريد أن تقلب له مفهومه، فتقول له: إنّما أنا طالبٌ، أي لا تاجر. قصرتَ نفسك على صفة الطالب، قصراً إضافياً، من نوع القلب ـ لأن المخاطب يعتقد العكس.

وقد يظن أنّك عدو، فتقول له: ما أنا إلاّ صديق. فهذا **قصر القلب**.

وقد يظن أن الشاعرَ عليٌّ، فتدلّهُ على أنه نزار فتقول: ما الشاعر إلاّ نزار.

إذن **قصر القلب** من القصر الإضافي، وفيه يقصَدُ إفهام المخاطب عكس ما يعتقد عن طريق أسلوب القصر.

ج ـ قصر التعيين

يخاطَب به من يشكّ أو يتردد.

تقول لشخص يشك في اسم الناجح: أهو بَكرٌ أم عمرو؟ إنّما الناجح بكرٌ؛ ويتردد شخص في زيد، هل هو مسافر أو مقيم. فتقول له: ما زيدٌ إلاّ مسافر.

* * *

أرأيت إلى هذا اللون من التقسيم إلى إفرادٍ وقلبٍ وتعيينٍ؟ إن الحكم فيه يعتمد على فهمك حالة المخاطب الخارجية أو النفسية، ففي هذه الحالة تخاطبه بأسلوب القصر؛ وفي كلّ لون من هذه الألوان تكون بين أمرين، فتنفي أحدهما، أو تعكسه، أو تختاره. ولذلك فقصر الإفراد والقلب والتعيين من النوع الإضافي.

* * *

طُرُق القصر

للقصر طرق كثيرة. أهمها أربعة:

أ ـ النفي والاستثناء.

ب ـ العطف.

ج ـ إنما.

د ـ التقديم.

أ ـ النّفي والاستثناء

نقول: لا فتى إلاّ عليّ. ما نزار إلا شاعراً.

في المثال الأول: «الفتى» مقصور. و«عليّ» مقصور عليه.

وفي الثاني: «نزار» مقصور. و«شاعراً» مقصور عليه.

إذاً، سواء أكان القصر قصرَ صفة على موصوف ـ كما في المثال الأول ـ أم قصرَ موصوف على صفة ـ كما في المثال الثاني ـ فإن المتقدّم هو المقصور، وما بعد «إلا» هو المقصور عليه دائماً.

ب ـ العطف

ويكون العطف بـ«لا» أو بـ«بَلْ» أو بـ«لكنْ».

نقول: شوقي شاعر لا كاتب.

الشاعر شوقي لا حافظ.

ونقول: ما عبد الحميد فارساً بل كاتب.

ما الفارس عبد الحميد بل عنترة.

ونقول: ليس الجاحظ شاعراً لكن كاتب.

ليس الشاعر الجاحظ لكن أبو تمام.

في هذه الأمثلة أتينا بجميع أدوات العطف الداخلة في بحث القصر، وجعلنا في كل مجموعة قصر موصوف على صفة، وقصر صفة على موصوف.

المقصور هو الكلمة الأولى.

والمقصور عليه هو الذي يأتي بعد أداة العطف.

ج ـ إنّما

نقول: إنما الشاعر أبو الطيب.

إنما أبو الطيب شاعر.

المقصور هو الكلمة الأولى.

والمقصور عليه هو المؤخَّر فيها جميعاً إلا في العطف بـ«لا» فإنه يأتي قبل العطف، لا بعده.

د ـ التقديم

ونعني بالتقديم: تقديم ما حقّه التأخير.

وبعبارة أخرى نقول: إذا قدَّمنا المعمول على العامل، أيّاً كان المعمول، وأيّاً كان العامل، فالمتقدم هو المقصور عليه، والمتأخر هو المقصور.

أوَلم نقل من قبل: إن التقديم يفيد التخصيص؟ وشرحنا القصر بأنه تخصيص شيء بشيء، أو أمر بآخر بطريق مخصوصة؟؟

لنضرب الأمثلة على التقديم:

راكباً جئتُ. في البيت جلستُ. عربيٌّ أنا. الطعامَ أكلتُ.

إياك نعبد. على الله توكلت.

الكلمات الأولى كلها هي المقصورة عليها.

والكلمات المتأخرة كلها هي المقصورة.

* * *

بقي أن نقول:

١ ـ إن القصر في هذه الطرق الأربعة يشمل: الحقيقيّ، والادّعائيّ، والإضافيّ، والإفراد، والقلب، والتعيين، وقصر الصفة على الموصوف، وقصر الموصوف على الصفة.

وفي كل أداة قصر يمكن أن تمثل هذه الألوان والأقسام جميعها.

٢ - هنالك وسائل للقصر خارجة عن هذه الأدوات، تدل عليها الجملة. كقولك: زارني محمّد **وحدَه**، وجاء خالد **لا غير**، ووصل زيد **فقط**، **واختص** محمّد بالكتابة، والشعر **مقصور** على نزار. وهكذا. ونحن لا نعدّ هذه من طرق القصر الإصطلاحية.

* * *

الجَمال الفنّي في القصر

لو استقرأنا بدائع التعبير الفنّي في لغتنا الجميلة لوجدنا كثيراً منها معتمداً على أسلوب القصر.

وإذا كان لطرق القصر المختلفة جَمال، فلتقديم ما حقّه التأخير قصبُ السَّبق، وراية الجَمال، وشارةُ الحُسن.

وتدليلاً على ما نذهب إليه، ونحكم به، نقطف باقةً من أبيات إحدى قصائد سلطان العاشقين ابن الفارض.

ما لي سِوى روحي، وباذِلُ نفسِه	في حبّ مَن يهواه. ليس بمُسرف
وَقْفاً عليه محبّتي، ولمحنتي	بأقلّ مِن تَلَفي به. لا أَشْتَفِي
لا تنكروا شَغَفي بما يرضى، وإنْ	هو، بالوصال، عَلَيّ لم يتعطّف
منّي له ذلّ الخضوع، ومنه لي	عزّ المَنوع، وقوة المستضعِف
أَلِفَ الصّدودَ، ولي فؤادٌ لم يزل	مُذ كنتُ، غيرَ ودادِهِ لم يألَفِ
كَمُلَت محاسنُه، فلو أهدى السنا	للبدر، عند تَمامِهِ، لم يُخْسف
وعلى تفنّنِ واصفيه بحُسنه	يفنَى الزمان، وفيه مالم يوصَف[١]

* * *

(١) ديوان ابن الفارض ص ١٥٦ ط. صادر.

المبحث السابع

الوصل والفصل

الوصل والفصل في رأي العلماء

قيل لأبي عليّ الفارسيّ: ما البلاغة؟ فقال: معرفةُ الفصل من الوصل.

وقال المأمون لبعضهم: مَن أبلغُ الناسِ؟ فقال: مَن قَرَّب الأمرَ البعيدَ المتناول، والصَّعبَ الدَّركَ بالألفاظ اليسيرة. قال: ما عَدَل سهمُكَ عن الغَرَض، ولكنّ البليغ مَن كان كلامه في مقدار حاجته، ولا يجيلُ الفكرة في اختلاس ما صعُب عليه من الألفاظ، ولا يُكْرِهُ المعاني على إنزالها في غير منازلها، ولا يتعمّدُ الغريبَ الوحشيَّ، ولا السّاقط السُّوقيَّ، فإن البلاغة إذا اعتزَلَتْها المعرفةُ بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلىء بلا نظام.

وكان يزيد بنُ معاويةَ يقول: إياكم أن تجعلوا الفصلَ وصلاً، فإنه أشدّ وأعيَبُ من اللَّحن.

وكان أكثم بنُ صَيفيّ إذا كاتَبَ ملوكَ الجاهلية يقول لكتّابه: افصلوا بين كل معنًى مُنقَضٍ، وَصِلُوا إذا كان الكلامُ مَعجوناً بعضُه ببعض[1]

---

(١) من كتاب الصناعتين ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠.

ضوابط الوصل والفصل

لو فتحنا كثيراً من كتب البلاغة، ولا سيما المؤلفة في العصور المتأخرة لوقعنا على ضوابط للوصل وللفصل، يعجز الإنسان عن الإحاطة بها، أو حفظها، ومن ثَمَّ عن تطبيقها. فيها ما يُسَمَّى بكمال الاتصال، وكمال الانقطاع، وشبه كمال الاتصال، وشبه كمال الانقطاع، والتوسّط بين الكمالَين، وما سوى ذلك.

ويخيَّل إلينا أن هناك ضابطَين اثنين يميزان الوصل من الفصل، لو عرفهما الإنسان حقَّ المعرفة، أدّى حقّ الكلام، وواجب التعبير الفنّي البديع الذي تَطَلَّع إليه الكبار من العلماء وأولي الذوق المرهف الرفيع.

الضابط الأول

أن يعرف الكاتب، أو الشاعر، أو المتحدث ما يريد أن يقول، وما يسعى للوصول إليه.

هذه المعرفة هي الأساس. ومتى أخطأها الإنسان ذهب كلامه أدراج الرياح.

العاقل من الناس هو الذي يختار الكلمة المناسبة للمكان المناسب، والتعبير الموجز أو المسهَب أو المتوسط وفقاً لعقلية مَن يخاطب، وذَكاء مَن يتحدث إليه، ومكانة من يقف بين يديه.

الضابط الثاني

وهو ضابط يعتمد على العِلم أولاً وأخيراً. ونقصد علم النحو أولاً، والبلاغة ثانياً.

ينبغي أن يعلم من خلال علم النحو معاني الحروف، وكيفية استخدامها في التعبير فالواو تؤدي معنى يختلف عن الفاء، أو ثم، أو بل من معاني العطف.

كذلك ينبغي أن يعلم أن الجملة الخبرية لها معنى وصياغة تختلف عن معنى الجملة الإنشائية وأسلوب صياغتها.

إنه إن مَلَك الذوقَ الفنِّي أولاً، وأصول العلوم الأساسية ثانياً، عرف بداهة متى يَصِل كلامه، بعضه ببعض، ومتى يقطعه، بعضه عن بعض.

من هذين المنطلقين يمكننا أن نتحدث عن مواطن الفصل ـ كما قررها علماء البلاغة ـ وقد يكون تعرُّفها وسيلةً إلى تعرُّف مواطن الوصل في الكلام.

مواطن الفَصْل

١ ـ إذا كان بين الجملتين اتحاد تام. وذلك بأن تكون الثانية توكيداً للأولى، أو بَدَلاً منها، أو بياناً لها. وهو: كمال الاتصال.

فالتوكيد نحو:

يَهــوَى الثنــاءَ مبــرِّزٌ ومقصِّــرٌ حــبُّ الثنــاء طبيعــة الإنســان

والبدل نحو:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(١)

والبيان نحو:

النـاسُ للنـاس مـن بـدوٍ وحـاضِـرَةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدَمُ

٢ ـ إذا كان بين الجملَتَين تباين تام، وذلك بأن تختلفا خبراً وإنشاءً، أو بألا تكون بينهما مناسبة ما، وهذا هو كمال الانقطاع.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.

فالإنشاء مع الخبر نحوَ:

لســـتُ مستمطِـــراً لقبـــرك غيثـــاً   **كيـف يَظمـا وقـد تضمَّـن بحـراً؟**

وعدم وجود مناسبة نحو:

كفى بالشيب واعظاً. **صلاح الإنسان في حفظ الوداد.**

٣ ـ إذا كانت الثانية جواباً لسؤال مذكور أو مقدّر في الجملة الأولى. وهذا شبه كمال الاتصال.

قال لي: كيف أنت؟ **قلتُ**: **عليلُ**   **سَهَـرٌ دِائـمٌ، وحُـزنٌ طـويـل**

هذا للسؤال المذكور، أما مثال السؤال المقدّر فنحو:

يقولون: إني أحملُ الضَّيمَ عندهم   **أعـوذُ بـربّـي أن يُضـامَ نظيـري**

فالجملة الثانية جواب عن سؤال مقدَّر في الجملة الأولى. فكأن الشاعر بعد أن أتى بالشطر الأول من البيت أحسَّ أن سائلاً يسأل: أصحيح ما يزعمون أنك تحمل الذل والضيم عندهم؟ فأجاب بالشطر الثاني عن هذا السؤال المتخيَّل أو المقدَّر.

مواطن الوصل

يقرر علماء النحو معاني حروف العطف، ويفصّلون القول فيها تفصيلاً يدعو إلى الإعجاب والافتخار.

والذي يعنينا من هذه الحروف كلها العطف بالواو وحدها، لأنها على حدّ تعبيرهم: لمجرد العطف، ولا تحمل أيّ معنى إضافي، على خلاف الحروف العاطفة الأخرى.

أما علماء البلاغة فلا يلتفتون إلى الجمل المعطوفة بالفاء أو ثُمَّ، أو لكن، أو بغيرها، لأن الحديث عنها إلى النحو أقرب.

يلتفت علماء البلاغة إلى الجمل الموصولة بالواو وحدها، ويضعون

قواعد ضابطة للوصل فيقولون:

١ ـ إذا قُصِد إشراك الجملَتين في الحكم الإعرابي نحو: أنت تَصِلُ وتَقطَعُ، وتعطي وتمنع، وتُذِلّ وترفع.

٢ ـ إذا اتفقت الجملتان خبراً أو إنشاء، وكانت بينهما صلة جامعة في المعنى؛ نحو: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۞ ﴾[1]

وكقول الشاعر:

فليتكَ تَحلُو والحياةُ مَريرَةٌ وليتكَ تَرضَى والأنامُ غِضابُ

٣ ـ إذا اختلفت الجملتان خبراً وإنشاءً، وأوهم الفصلُ خلاف المقصود.

قد تسأل صديقك عن صحة والده؛ فتقول له: هل شُفِيَ والدك؟ فإذا قال لك: لا عافاه الله. فهو مصيب من جهة القاعدة البلاغية الموجبة للفصل بين الجملتين إذا اختلفتا خبراً وإنشاءً لأن «لا» تقوم مقام جملة خبرية، و«عافاه الله» جملة إنشائية للدعاء. وهو مخطىء في التعبير بل في الذوق كذلك. لأنه قد يُفهم من جوابه الدعاء على والده بعدم المعافاة، وطبيعي أنه لا يقصد هذا. لذا وجب الوصل في هذا الموطن، والقول: لا وعافاه الله.

ويسألك أخ لك: أَلَكَ حاجة فأقضيها؟ فتقول له: لا وحفظك الله.

الخلاصة، لئن كان بحث الوصل والفصل كثير الأهمية عند الأقدمين إنه ليزداد أهميةً لدى الأدباء المعاصرين، إذ يعرّفهم متى يفصلون كلامهم بعضه عن بعض، ومتى يصلونه، بعضه ببعض. على أن يكون الذوق أولاً ومعرفة المراد عنواني كلامهم وتعبيرهم.

* * *

---

(١) سورة الانفطار، الآية ١٤

المبحث الثامن

الإيجاز والإطناب والمساواة

في مطلع هذا الكتاب عَرَضنا طائفةً من أقوال العلماء في البلاغة، فكان من جملتها أن «البلاغة في الإيجاز»؛ وبيَّنّا آنذاك متى يصحُّ أن توصَف البلاغةُ بالإيجاز، ثم ضربنا مثلاً آخر كانت البلاغة في نجوى المتحابَّين وقد طال حديثهما، وامتدت المناغاة أمداً. وخرجنا بنتيجة أن البلاغة ليست في الإيجاز، ولا في الإطناب، إنما البلاغة أن نخاطب الناس على قَدْر عقولهم، وفهومهم. نحدّث العلماء بلغة العلم، والأدباء بلغة الأدب، والصغار بما يحبّه الصغار، والنساء بما تفهمه النساء وتهفو إليه قلوبهن وعقولهن.

وفي هذا المقام، وكتاب علم المعاني مشرف على بلوغ غايته، نعود إلى حيث بدأنا، فنؤكد ما قلناه في مطلع البحث، متأكّدين، مُتَثبِّتين؛ ونبالغ في الشرح والتأكيد، لنصل إلى أن البلاغة فنٌّ رفيع، وذوقٌ مرهَف، وكلمةٌ مجنَّحة، وروحٌ عذبةٌ شفّافة، وذكاء حادّ عظيم.

إني لأميل إلى تغليب أثر الذكاء على العوامل الأخرى، فالذكّي وحده يبلغ ما لا يبلغه العالم والغنيّ والأديب وسواهم من العَالَمين.

ولعلنا لو ضربنا بعض الأمثلة على هذا الذكاء لآمنّا أنه المفتاح لكل

شيء عظيم. والبلاغة جزء من هذا الشيء العظيم.

أ ـ في حديث نبوي شريف لخّصَ رسول الله ـ ﷺ ـ الدين الإسلامي بكلمة واحدة، فقال: الدينُ المعاملةُ.

ولو حاولنا أن نفسّر ما تعنيه هذه الكلمة لوجدناها تنطوي على جوهر الدين كله، عبادةً، وتعاملاً، وسلوكاً.

المعاملة مع الناس، والمعاملة مع النفس، والمعاملة مع الله ـ جلّ وعلا

أفلسنا نستطيع تفسير كل عنصر من هذه العناصر بصفحات كثيرة؟

هذا الإيجاز جاء ليحفظه الإنسان المؤمن عن ظهر قلب، وليعرف دائماً قيمة عمله: أهو من الدين أم من غير الدين.

وبهذه الكلمة استطاع الرسول العظيم أن يجمع المعنى الكبير تحت لوائها. وهذا هو الإيجاز الرائع، والبلاغة الحق.

* * *

ب ـ تَكاثَرَ الخصوم السياسيون على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وشنّوا عليه غاراتٍ كلاميةً، وغاراتٍ حربيّةً، حتّى وصلوا إلى الكوفة، وفعلوا بأهلها الأفاعيل. والكوفةُ عاصمتُه، وأهلُ شيعته، ومنطلقُ دعوته، ومركزُ قوته. ونادى بالناس: حَيَّ على الجهاد في الصيف؛ فاعتذروا إليه بشدة الحرّ؛ فأمهلهم إلى الشتاء، وجاء الشتاء، فدعاهم إلى الجهاد؛ فتعلّلوا بالبرد. واقتحم عدوهم عليهم قلب بلدهم، فلم يتحرك لهم ساكن، ولم تَثُر فيهم نخوة، ولا كرامة.

أفبعد هذا كله يحدّثهم عليٌّ ـ كرّم الله وجهه ـ حديث الوداد، أو يكلّمهم بعبارات المحبة، أو يوجز لهم القول المؤنِّب، أو يختصر لهم

الخطبةَ الحانقة؟ إنه إن فَعَلَ هذا كان من الغافلين، الجاهلين، بل إن فَعَل هذا فليس له من الذكاء والفهم نصيب. وهو باب العلم وسيّد البلاغة والبيان.

لقد وقف ـ رضي الله عنه ـ وألقى خطبةً مُسهَبَةً، لا أَعظَمَ منها ولا أروع. رماهم بشهب وصواعق، وتركهم سُبَّةَ الأجيال على مدار الزمان.

«يا أشباهَ الرجال ولا رجال، حُلُومُ الأطفال، وعقولُ ربّاتِ الحِجال. لَوَدِدتُ أنّي لم أركم، ولم أعرفكُم. معرفةٌ جرّت ـ واللهِ ـ نَدَماً، وأعقَبت سَدَماً. قاتلكم الله. يُغارُ عليكم، ولا تُغيرون، ويُعصَى الله وترضَون»!

نفى عليٌّ ـ كرّم الله وجهه ـ عنهم صفة الرجولة، كما نفى عنهم صفات الأنوثة، فلا هُم بالرجال، ولا هم بالنساء. إنما هم بين النساء والرجال، وأصعِبْ بهذا من نعت. ثم نفى عنهم العقل الراجح، والفكر الموزون، ورماهم بما يُرمَى به ضعفاء التفكير، وحمقى الناس. وأكّد على أنه ندم حين عرفهم، وقَدِم إليهم. وأقسم على هذا الندم يميناً مغلَّظاً. وتحدّث عن آلامه وأشجانه، ودعا عليهم، وأخيراً وصفهم بالخلوّ من الشرف والنخوة، لأن الرجل الشريف يدافع عن حريمه إذا هوجمت حريمه. أما هم فلم يدافعوا. كما رماهم بقلة الدين. يَرَونَ المعاصي فلا يثورون، وأكثر من هذا، هم لها يقترفون!

أفليس المقام الذكي موجباً لهذا السُّباب، ولهذه اللعنات، ولهذه الكلمات النارية القاتلة؟

ابن أبي طالب ذكيّ أريب. وكان في قمة البلاغة في هذا الإسهاب.

* * *

يُخَيَّل إلينا أن الإيجازَ والإطنابَ يصُبّان في مجرى واحد، هو «المساواة».

والذي نعنيه بـ«المساواة» موافقة المعاني لمقدار الألفاظ، لا يزيد بعضها على بعض.

فالرجل الذي وقف أمام مَلِك، أو عظيم، أو وزير، أو عالِم، وعبَّر عن حاجته بكلمات معدودة، هو في ظاهر الحال رجلٌ موجِز، بينا كلامه القليل أدَّى مراده، وفَعَل فعْلَه في نفس سامعه الذكيّ العظيم. وكان ذلك هو المطلوب؛ كما كان ذلك القول هو القول المناسب، المساوي لمقتضَى الحال.

والسياسيّ الذي يقف أمام جماهير بلده، ويخطب فيها، مبيّناً لها السياسة التي ينهجها، والخُطَّة التي يرسمها، والمستقبل الذي ينتظرها، والعقبات التي يواجهها، والأعداء التي يحاربها، والأصدقاء التي يسالمها. يحتاج إلى كلام كثير، وشرح وتفصيل، وأدلّة وبراهين، لأن هذه الجماهير خليط من الناس، فيها المتعلِّم، وشبه المتعلم، والجاهل، والمغَفَّل، وذو الفهم السقيم.

إن هذه الخطبة الطويلة، والكلام الكثير هي المطلوبة في هذا الموقف، وهي القول المناسب، المساوي لمقتضى الحال.

إذاً، الغاية التي سعى إليها الرجل أمام الملك، والسياسيّ أمام الجماهير واحدةٌ. فالأول رمى إلى قضاء حاجة أو جَرِّ منفعة، ووصل إلى ما أراد بكلامه الموجز، والثاني رمى إلى كسب ودّ الجماهير، وطاعتها، أو سوْقها إلى حرب أو سلام، ووصل إلى ما أراد بكلامه الطويل.

أفَلا نستطيع بعد هذا أن نقول: إن الإيجاز والإطناب يؤدّيان إلى غاية واحدة، ويَصُبّان في مجرى واحد، هو «المساواة»؟

* * *

يُذكرِّني هذا بالجملة الخبرية التي قسّمها العلماء إلى ثلاثة أضرُب: ضَرب ابتدائي يُلقى على خالي الذهن، وضَربٍ إنكاري يُلقى على رجل منكر، وضَربٍ طَلَبّي يُلقى على شاكٍّ أو متردِّد. وبالتأكيد الذي يصاحب الخبر وحال المخاطب يقف خالي الذهن، والمنكر، والشاكّ على صعيدٍ واحد، وهو تصديق ما جاء بالخبر.

كذلك يذكِّرني هذا بالخبر الذي خرج على مقتضى الظاهر، فعومل فيه المنكِر معاملةَ غيرِ المنكِرِ، كما عومل غير المنكِر معاملة المنكِر أو المتردد. فقيل للملحد المنكر: «الله موجود»، وقيل لمن يضرب أمه ويركلها برجله: «والله إنّ الجنةَ تحت أقدام الأمهات». وإذا هذه الأخبار ترتَدّ إلى الأصل الأول الذي يعامل فيه خالي الذهن بضَرب ابتدائي، والمنكر بضَرب إنكاري، والشاكّ بضرب طلبيّ. بعد أن تدخلت العوامل النفسيّة في الموضوع.

* * *

قد يقول قائل: ليس من الحقّ أن نجعل على صعيد واحد جوامع الكلم، وروائع القول، وجواهر النتاج العقلي الذي سبك بأحلى لفظ، ووشِّيَ بأجمل تعبير مع تلك الأقوال الفَضْفاضة التي لا تُنْتِجُ بعد مَخض كثير سوى دَسَم قليل. إن من الظلم أن نجعل هذا وذاك على قدم المساواة، وإن الحق ليقضي أن يُفصَل الإيجاز عن الإطناب، وتقوم المساواة بينهما وسطاً.

هذه النظرة حقّ، لا ريب فيها. وأحقيَّتُها تعود إلى الصورة التالية:

لو سمع رجلٌ واحد، وليكن هذا الرجل أنا أو أنت، كلاماً فيه إيجاز، وكلاماً فيه إطناب، وكلاماً بَين بَين، أفيكون حكمه على هذه الأنواع واحداً، أم أنه سيحكم على كلٍّ منها حكماً مختلفاً عن الحكم الآخر؟

في هذه الصورة نستطيع أن نميز الكلام إلى أقسامه الثلاثة، فنجعل الموجز في قسم، والمطنَب في آخر، والمتوسط في ثالث.

وبهذا القسم نكون قد سرنا على خطى الأقدمين ونهجنا منهجهم. وخلاصته:

الإيجاز

يعرّف كثير من العلماء الإيجاز بأنه: «وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلّ منها، وافية بالغرض المطلوب، مع الإبانة والإفصاح»

ويقسمون الإيجاز إلى قسمين:

١ ـ إيجاز قِصَر

وفيه تزيد المعاني على الألفاظ، ولا يقدَّر فيه محذوف. من ذلك قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(١)] فهذه الكلمات على قصَرها، وتقارب أطرافها، قد احتوت على جميع مكارم الأخلاق، ومحامد الشِّيَم، وشريف الخصال.

وفي اللغة العربية كثير من الروائع، نقتطف باقةً منها:

* حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمي ويُصِمّ.
* ولكم في القِصاصِ حياةٌ.
* لا ضَرَر ولا ضِرار.

---

(١) سور الأعراف، الآية ١٩٩

* إنّ من البيان لَسِحراً.
* إن المُنبَتَّ[1] لا أرضاً قَطَع، ولا ظَهراً أبقى.
* يَدُ الله مع الجماعة.
* ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، وإنما الغِنى غنى النفس.
* إذا لم تَستَحِ فاصنَع ما شئتَ.
* اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى.
* ما هَلَكَ امرؤٌ عَرَف قَدْره.

ولقد امتلأت كتب تراثنا من هذه الروائع، شعراً ونثراً، غير مقصورة على زمن دون زمن، وإقليم دون آخر، وثقافة دون أخرى، ولو دون سواه.

* * *

٢ ـ إيجاز حذف

ويكون بحذف بعض ما في العبارة من كلمات، من غير أن يختّل المعنى، وبشرط أن يقوم دليل لفظيّ أو معنويّ على المحذوف.

مثل ذلك لو سألك سائل: من الذي حاضَرَ في الكلية يوم الجمعة الماضي؟ فتجيبه: «سعيد». فأنت حذفتَ جملة كاملة تقديرها «الذي حاضر في الكلية يوم الجمعة الماضي» واكتفيت بكلمة واحدة هي «سعيد»، وقد أدَّت المراد المطلوب، أما قرينة الحذف فلفظية، تجلَّت في صيغة السؤال.

ولقد رأينا كثيراً من شواهد الإيجاز والحذف في مختلف مباحث الكتاب. كان منها يوم تحدّثنا عن حذف المسنَد إليه، وحذف المسنَد، وحذف المفعول.

(١) المنبتّ: المرهق نفسه في السير حتى ينقطع دون غايته.

من أمثلة هذا اللون:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[1] التقدير: في سبيل الله.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[2] التقدير: عملاً صالحاً.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3] التقدير خلقهن الله.

* قال لي: كيف أنت؟ قلتُ: عليلٌ. التقدير: أنا عليل.

وجدير بالذكر أن إيجاز الحذف يمكن أن يُحذَف فيه حرف، أو اسم، أو فعل، أو جملة، أو أكثر من جملة.

ودواعيه كثيرة، أهمها: الاختصار، وتسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر على السامع، والسآمة والضجَر، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل.

* * *

ويُستحسَن «الإيجاز» في رسائل الاستعطاف، وشكوى الحال، والاعتذار، والتعزية، والعتاب، والوعد، والوعيد، والتوبيخ، ورسائل الملوك في أوقات الحرب إلى الولاة والقادة، والأوامر الملكية، والشكر على النعم.

الإطناب

زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء، فإذا لم يكن لهذه الزيادة فائدة عُدَّ ذلك تطويلاً

(١) سورة الحج، الآية ٧٨
(٢) سورة الفرقان، الآية ٧١
(٣) سورة لقمان، الآية ٢٥

فلو قال قائل: «إن أبرز صفاتِ عنترة أنه شجاع وجريء ومقدام، لا يخاف ولا يهاب ولا يرتعد أمام العدو، ولا يعتريه رهبة أو وَجَل أو فزع. » فهذه العبارات كلها تدور حول صفة واحدة تفهم من الأولى ولا يزيد سائر الكلام عليها شيئاً؛ بعكس ما لو قال قائل: الأدب أدبان: أدب النفس، وأدب الدرس. فإن التفصيل في هذا المقام يفيد الإيضاح، ويقضي على الغموض(١)

والإطناب ـ كما أوضح البلاغيون ـ يأتي في الكلام على أنواع مختلفة، لأغراض بلاغية، أهمها:

أ ـ الإيضاح بعد الإبهام

وهذا النوع من الإطناب يُظهِر المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مجملة مبهمة، والأخرى مفصَّلة موضَّحة. وهذا من شأنه أن يزيد المعنى تمكّناً من النفس. فإن المعنى إذا أُلقيَ على سبيل الإجمال والإبهام تشوّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يَرِدُ بعد ذلك. فإذا أُلقي كذلك تمكّن فيها فضلَ تمكّن، وكان شعورها به أتمّ، ولذتها بالعلم به أكمل.

مثل ذلك قوله تعالى في قصة آدم: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾(٢) فقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ كلام مجمل مبهم، ثم جاء التفصيل والتوضيح بالكلام الذي جاء بعده.

ومن الإيضاح بعد الإبهام لونٌ دعاه البلاغيون بـ«**التوشيح**».

---

(١) المفيد في البلاغة ص ١١١

(٢) سورة طه، الآية ١٢٠

وهو أن يؤتى في عجز الكلام ـ غالباً ـ بمثنًى، مفسَّر باسمين، أحدهما معطوف على الآخر كقوله عليه السلام: يَشيب ابنُ آدم وتشبّ معه خَصلتان: الحرص وطول الأمل.

وكقول البحتري:

لما مَشَيْنَ بذي الأراك تشابهت أعطافُ قضبانٍ به وقدود

في حُلَّتَيْ حِبَرٍ وروضٍ فالتقى وَشْيان: وشْيُ رُبَى ووشْيُ بُرود

وسَفَرْنَ فامتلأت عيونٌ راقَها وردان: ورد جنًى وورد خدود

ومتى يساعدنا الوصال ويومنا يومان: يوم نوى ويوم صدود[1]

ب ـ ذكر الخاصّ بعد العامّ

الغرض البلاغي من هذا الإطناب هو التنبيه على فضل الخاص وزيادة التنويه بشأنه، حتى كأنه ليس من جنس العام.

مثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[2] فلقد خَصَّ الصلاة الوسطى بعد ذكر الصلوات عامة لأهميتها؛ إذ تقع في وسط النهار، إبّان انصراف الناس إلى أعمالهم، وإنهماكهم في شؤون العيش، مما قد يحملهم على التهاون والإهمال، لذلك خصَّها القرآن بالذكر، لتكون بمثابة رادع للناس عن التهاون، ومذكّر لهم بفريضة الصلاة وما يتوقف عليها من معطيات في سلوك المرء.

ج ـ ذكر العامّ بعد الخاصّ

والغرض من ذلك هو إفادة العموم مع العناية بشأن الخاص.

دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ

---

(١) ديوان البحتري ص ٦٩٧، ومطلع القصيدة: «شُغْلانِ: من عَذَل ومن تفنيدِ».

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٨

بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1]، فتدرج في هذ الدعاء من الخاصّ إلى العامّ، ومن الجزئيّ إلى الكليّ.

د ـ التكرار

والمراد به تكرار المعاني والألفاظ، ولقد سبق أن ذكرنا أن التكرار إذا حمل معنى جديداً أو فائدة فهو محمود، وإلا فهو المذموم والتطويل.

ومن التكرار المفيد:

* **الرغبة في تأكيد المعنى**. نحو: فإنّ مع العُسرِ يُسراً. إن مع العُسر يسراً.

* **إظهار التحسر** نحو:

فيا قبرَ مَعنٍ أنت أول حفرة ... من الأرض خطّت للسماحة موضعاً
ويا قبر معنٍ كيف واريتَ جوده ... وقد كان منه البَرّ والبحر مترعاً

* **طول الفصل**، لئلا يجيء مبتوراً ليس له طُلاوة. نحو:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2]

* **تأكيد الإنذار**. نحو ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[3]

* **التلذذ بذكره**. نحو:

سقى الله نجداً والسلامُ على نجد ... ويا حبذا نجدٌ على القُرب والبُعد

---

(1) سورة نوح، الآية ٢٨
(2) سورة يوسف الآية ٤
(3) سورة التكاثر، الآيتان ٣ و٤.

هـ ـ الاحتراس والتأدب

ويكون حينما يأتي المتكلم بمعنى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم، فيفطن لذلك، ويأتي بما يخلصه منه. ذلك هو الاحتراس.

أما الاعتراض فمعظمه يرد في خلال الكلام للتأدب والتلطف والدعاء، أو لغرض غالباً ما يكون حسناً.

مَثَل الاحتراس قول الشاعر:

فسقى ديارك ـ غير مُفسدها ـ صَوبُ الربيع وديمةٌ تهمي

إن جملة «غير مفسدها» كانت احتراساً من الشاعر أن يخطىء سامعه بفهم كلامه ومراده. فسقيا السماء للأرض قد تكون بالغة إلى حدّ الطوفان، فاحترس الشاعر لهذا، فجاء بالعبارة اللطيفة.

ووصف ابن المعتز فرسه الأصيلة فقال:

صَبَبْنا عليها ـ ظالمين ـ سياطَنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

فلو لم يحترس الأمير الشاعر بكلمة «ظالمين» لاعتقدنا أن فرسه ليست أصيلة، ولا تجري إلا إذا ضربت بالسياط.

ومثال اعتراض التأدب قول أسلافنا: اعلْم ـ حفظك الله ـ أن هذا العلم من خير العلوم. إلخ.

وكقولك لرجل تتحدث عن أبيه أو عن إنسان فاضل انتقل إلى جوار ربه: كان ـ رحمه الله ـ من أفضل الناس وأكرمهم. وكقولك مخاطباً أحد أحبابك: إن هذا ـ أطال الله عمرك ـ من أعظم ما يجنيه المرء في حياته. وهكذا. وكقول زهير:

إن الثمانين ـ وبُلِّغتها ـ قد أحوجَت سمعي إلى ترجمان

و ـ التذييل

وهو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلة، تشتمل على معناها، تأكيداً للفظ الأول، أو لمعناها. نحو قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1] فجملة «إن الباطل كان زهوقاً» تعقيب: على الجملة السابقة تشتمل على معناها توكيداً لها

ويقسم البلاغيون التذييل قسمين:

١ ـ قسم جارٍ مجرى المَثَل

وذلك إن استقلّ معناه، واستغنى عما قبله كقول بشار:

ومَنْ ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدَّ معايبه

وكقول الحطيئة:

تزور فتى يعطي على الحمد مآله ومن يعطِ أثمان المكارم يُحمَد

٢ ـ قسم غير جارٍ مجرى المثل

وهو الكلام الذي لا يستقلّ بمعناه، ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله.

مثله قول النابغة:

لم يُبقِ جودُك لي شيئاً أؤمّله تركْتَني أصحبُ الدنيا بلا أمل

فالشطر الثاني من البيت إطناب بالتذييل، غير جارٍ مجرى المثل للشطر الأول؛ فهو تأكيد لاشتماله على معناه، ولكنه غير مستقلّ بمعناه، إذ لا يفهم الغرض منه إلا بمعونة الشطر الأول.

* * *

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨١.

المساواة

المساواة هي إحدى الطرق الثلاث التي يلجأ إليها البليغ للتعبير عن كل ما يجول بنفسه من خواطر وأفكار.

وإذا كان الإيجاز هو التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح؛ وإذا كان الإطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فإن المساواة هي أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقَدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض.

والمساواة ـ كما يقول أبو هلال العسكري ـ هي المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله: «كأن ألفاظه قوالب لمعانيه». أي لا يزيد بعضها على بعض.

إن الأمثلة على هذا اللون أكثر من أن تُحصى. ونقطف باقة من روائع الأقوال:

* ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1]

* الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ.

* ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾[2]

* وكقول النابغة[3]:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي ... وإن خِلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

(١) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(٢) سورة الرّوم، الآية ٤٤.

(٣) من اعتذاريات النابغة. ومطلع القصيدة: «عَفا ذو حُساً مِنْ حُساً من فَرْتَنَى فالفوارغ».

* وكقول كثيّر عزّة[1]:

ولما قَضَينا من مِنًى كلَّ حاجةٍ ... ومسَّح بالأركان مَن هو ماسحُ
وشُدَّت على دُهم المطايا ركابُنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطِيّ الأباطح

وبعد، فليست البلاغة في الإيجاز، ولا في الإطناب، ولا في المساواة. إنما البلاغة في ملاءمة مقتضى الحال.

* * *

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

(١) أسرار البلاغة ص ١٦

فهرس

من آثار المؤلف

١	كتاب النحو (الجزء الأول)	مقرر السنة الأولى في المعاهد العلمية في المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) الرياض ١٣٨٨ هـ	مطابع النصر
٢	كتاب النحو (الجزء الثاني)	مقرر السنة الثانية في المعاهد العلمية في المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) الرياض ١٣٨٨ هـ	مطابع النصر
٣	الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية	دار العلم للملايين	الطبعة السادسة ١٩٩٤
٤	التعبير الفني في القرآن الكريم	دار العلم للملايين بيروت	الطبعة الأولى السنة ١٩٩٤
٥	أدب الحديث النبوي	دار الشروق ـ بيروت	الطبعة الثالثة السنة ١٩٧٩
٦	المعلقات السبع	دار الإنسان الجديد ـ بيروت	الطبعة الأولى السنة ١٩٧٤
٧	مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني	دار العلم للملايين ـ بيروت	الطبعة الرابعة السنة ١٩٨٦
٨	البلاغة العربية في ثوبها الجديد الجزء الأول ـ (علم المعاني)	دار العلم للملايين ـ بيروت	الطبعة الثالثة السنة ١٩٩٠
٩	البلاغة العربية في ثوبها الجديد الجزء الثاني ـ (علم البيان)	دار العلم للملايين ـ بيروت	الطبعة الثالثة السنة ١٩٩٢
١٠	البلاغة العربية في ثوبها الجديد الجزء الثالث ـ (علم البديع)	دار العلم للملايين ـ بيروت	الطبعة الثالثة السنة ١٩٩٣
١١	نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز (دراسة وتحقيق) تأليف الإمام فخر الدين الرازي	دار العلم للملايين ـ بيروت	الطبعة الأولى السنة ١٩٨٥
١٢	بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها (تحقيق ودراسة) تأليف الإمام عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي		تحت الطبع

THE ARABIC ELOQUENCE IN ITS NEW FORM

By

Dr. Bakri Sheikh Amin

DAR EL-ILM LILMALAYIN

Beirut — Lebanon